الجــفاف الطويل

الجفاف الطويل

صدر العمل الأصلي عن دار نشر بارثيان في لندن PARTHIAN
بعنوان The Long Dry
رواية
كونان جونز / ويلز
ترجمة: محمد المغربي
تدقيق لغوي: أَحْمَد يُوْسُفَ عِزَّت
الغلاف : هانيبال - هيبو
الطبعة الأولى/ القاهرة ٢٠٠٨
رقم الإيداع: ٢٠٠٨/١٥٠٨٢
ISBN: ٩٧٨-٩٧٧-٦٢٩٩-٠٥ - ٤

وكالة سفنكس للفنون والآداب
٧ شارع معروف الدور السابع
وسط البلد – القاهرة
ت/ف: ٢٥٧٩٢٨٦٥ ٠٢ ٠٠٢
www.sphinxagency.com
info@sphinxagency.com

جميع الحقوق محفوظة للناشر، ويحظر نشر أو إقتباس أي جزء من هذا العمل أو كله إلا بإذن كتابي.
ومن يخالف ذلك يتعرض للمساءلة القانونية
Sphinx Agency © 2008

This book Published with the financial support of Llenyddiaeth Cymru Dramor / Welsh Literature Abroad

كونان جونز

الجفاف الطويل

ترجمة: محمد المغربي

وكالة سفنكس للفنون والآداب

كونان جونز.

كاتب يمثل موجة السرد القصصي- الجديد في بريطانيا، والجفاف العظيم أولى رواياته المنشورة في يناير ٢٠٠٧، ويعترف المؤلف بصراحة مدهشه أن كتابته لتلك الرواية التي ربت صفحاتها في الأصل الانجليزي على مائة ونيف صفحة لم تستغرق منه سوى عشرة أيام مما يعكس السرعة المذهلة في حالات الإبداع الجديدة المخالفة لحالات الإبداع التقليدي التي كان يستغرق فيها الأديب شهورا وسنينا مما ينطبع كذلك على الأخيلة والأسلوب، ومع إن هذه الرواية هي أولى كتاباته إلا إنها أصابت نجاحا مذكورا في المملكة المتحدة.

كونان جونز ولد في مقاطعه ويلز بوسط انجلترا، في مدينه أبريرون الريفية في الطابع على الساحل الانجليزي الهادئ في الثمانينات، مما ينعكس على رواياته في جدة وأصالة وبراعة.

محمد احمد المغربي

ولد ببورسعيد عام ١٩٥٠

رئيس نادي الأدب بالفرع الثقافي بالمحافظة،وعضو الامانه العامة لأدباء مصر.

- صدر له ديوان: وإيزيس إذ تقوم مرتين صدر عن الهيئة العامة لقصور الثقافة. وقائع ومشاهير ترجمة صدر عن الدار الجماهيرية للنشر بليبيا. حقوق الإنسان من منظور عصري (ترجمة) عن دار الفجر للنشر- بالقاهرة. مدخل نقدي لإبداعات أبناء القناة وسيناء نقدعن منشورات أمواج.

إهداء الترجمة

"إلي أحبائي، وأعدائي معًاً.من أجل أدب خالٍ من الحقـــــد أو المكابرة."

محمـد المغربي

مفتتح

السرد الأدبي إبداع إنساني متفرد، يتماس مع/ ويتداخل في كافة الأشكال الأدبية كالمسرح والرواية والقصة والمقال الأدبي وصولاً إلي الشعر، والحديث منه خاصة. والمتابع لحركة السرد عربياً وعالمياً تذهله القفزات الشاسعة التي وصلت إليها أشكال السرد الجديد، إذ تكتسب كتابات ذلك السرد ملامح ومعالم العصر الذي نعيشه؛ تنوعًا وتدفقًا، شمولاً وعمقًا. وتجد نصوص ذلك السرد بعد أن تجاوزت المألوف والسائد قد سدرت في ابحارها ميممة شطر المغاير والمختلف، لاتنتوي - وسط إبحاره الهادر هذا - الرسو بأي شاطئ يلوح على مدى البصر ليحتويها تنظيراً وتقعيدًا للإشكاليات الجمالية والقضايا الأسلوبية التي تطرحها على الساحة الأدبية، وينتظر مبدعوها وكاتبوها من النقاد والدارسين أن يلهثوا وراء أشكالها العجلى ولغتها المتجددة بلا حدود وكذا لاستقراء قوانين تطورها وملامح معايرتها، وهو لهاثٌ لن يتوقف مادام الإبداع الإنساني يحتفظ بوظيفته الجمالية والخِبْرِية في عالمنا والي ما شاء الله. هذا الجديد في عالم السرد، يقذفه مبدعوه قذفًا بوجه المتلقي قاصدين إصابة ذهنه -هكذا- بصدمة واعية تعيد تشكيل رؤيته لمفردات الحياة حوله بقبحها قبل جماله، وبتعقيدها قبل بساطتها، بل وبكآبتها قبل حبورها. ورغم انتشار هذا المكون الكدر في بنية حياة الإنسان الحديث في عمومها، إلا أن النص الجديد ينقله على صفحات سرده في بساطة واشتهاء، وهنا ينفتح وعي المتلقي على ذلك العالم الزَخِم الزاخر بالحياة والذي نعيشه حتى النخاع. إذ يفقد الإنسان أهميته ومركزيته الكونية ويصبح هباءة وسط هباءات متكاثرة تحيط به، يتساءل مع كل تلك العناصر المشكلة للوجود حوله؛ فهو يتألم ويلتذ كما تتألم هي وتلتذ، وهو يحزن ويفرح كما تحزن هي وتفرح، جمادات كانت أو بها حياة.... فالمنازل والمزارع والكلاب والطيور وغيرها وغيرها، كلها تشترك مع الإنسان في تشكيل لوحة الكون العظيم حوله، فلا وجود لما هو ثمين وغال هنا ورخيص وغث هناك، وعش معي ما يرسمه كونان جونز هنا..

إن العالم ـ كما يعتقد ـ يمتليء بمثل تلك البطولات الصغيرة، التي يصعب تصديقها، ويراها هو أعظم أثرًا، من البطولات الهائلة في التاريخ، وهو يظن أننا نجد القوة لفعلها، بطريقة أو بأخرى. أخذ ينحى تلك الفكرة بعيدًا عن ذهنه، تلك الرغبة الانقلابية المفاجئة نحو المأساة، بعودتهما معًا مرة ثانية، وها هو يفكر فيها، وهي تخطو فوق العشب المنتعش، ويعرف أنها سترفض مُبديةً أعذارًا سخيفة. تتعلق بالمسئوليات في مبدأ الأمر مثل: عليَّ أن أقوم بالغسيل، أو ماذا سنفعل في موضوع البقرة؟ أو إنك لم تخبرني شيئًا عن أمر العجل"، لكنه سيتمكن من إقناعها، وسط تلك الأشعة الشمسية البديعة، ولسوف يلتقطها، ويحملها ـ إذا لزم الأمر ـ حتى تضحك، وسيضعها فوق العشب الأخضر الدافئ، دون حذائها.

انها معالم السرد الجديد في بساطتها وعمق تعقيدها.

محمد المغربي

بورسعيد

الإِهْـدَاْء

مِنْ أَجْلِ العَزِيْزَةِ: تشَارم، و مُوم

فِـي ذِكْرَىْ: د. لِـي. و

الفَصْلُ الأَوَّل

البَقَرَة

تراه كقهوة الصباح حينما يأتي ليوقظها.

'لقد رحلت البقـرة،' يهمـس لذاتـه: لقـد رحلـت تلـك المُبَقّعـة، ذات الأثداء الممتلئة، ولسوف أذهب بحثًا عنها.'

انطلق خارجًا -رغم أن شمس اليوم التالي تنذر بطقس حار- يبدو أنه سيكون كذلك لأسابيع قادمة، بينما تـراه هـي قادمًـا عـبر الحـارة بطـول السور النباتي نحو الحقل الواسع، والذباب يطن أزيـزًا، وقـد مضىـ -هـو- مسرعًا فوق الأرض الجافة؛ قاذفًا في طريقه الأحجار المتناثرة.

يجتاز البوابة الأولى؛ فتسمعها تصلصـل بلطـف شـديد، عـبر خصـاص نافذة الغرفة المُشْرَعة. تتخيلـه: واقفًـا، ومشـاهدًا، ثـم مُنصـتًا. وكـل مـا يسمعه: صوت الذباب، والأنين الخافت للأغنام، حين تنظر إليه.

فتنظر إلى الساعة على المنضدة، بجوار السـرير؛ لتجدها قد أوشكت على السادسة.

العِجْل

لقد استيقظ مبكـرًا؛ وذهب ليتفقد البقرات، والليل مازال قائمًا، لم يستطع النوم مرة ثانية، مع كل تلك الأفكار التي تملأ صمت الليل الساكن؛ لذا فقد نهض وذهب إلى الخلاء والصباح مبكر. حيث بقى الصبح بعيدًا لفترة طويلة؛ قبل أن يُقبل الضوء.

وبهدي من ضوء المشعل ؛ وجد العجل المولود ميتًا توًّا، وسط القش في الجرن، قام بحك المتبقي من إصبعه المبتور، وقد أمكنه رؤية بخار الماء المتصاعد، من أنفاس البقرات، في هواء الصباح -الذي كان حينئذ باردًا- وبَخرٌ دافئٌ، يشع من أجسادهن. وكانت أم العجل الوليد راكعةً بجواره، منحنيةً في حزن وهدوء. في حين صمتت الحيوانات الأخرى، ونفخت وهي تمضغ التبن.

قام هو بحمل العجل الوليد الميت من قدميه، ورفعه عن القش، الذي لوثته دماء الولادة ـ لا الموت ـ لقد كان أمرًا غريبًا؛ أن تلعق الأم وليدها الميت لتنظيفه. فكر في الأم، التي تنظف وليدها لعقًا؛ دون أن تفهم؛ لماذا لم يقف ابنها متأرجحًا على قدميه -الهزيلتين- وقد أضحت قدماه غير مستويتين، وعيناه متسعتين، ولماذا لم تأته تلك الحياة الجديدة المترددة؟

حمل العجل إلى خارج الجرن ؛ بعدما قام بإحصاء البقرات داخله، وذهب قُدمًا إلى الحقل ولسوف تحزن "كيت" لموت العجل ؛ فإن العجول نادرًا ما تموت عندهم.

***

وبزغ النهار عبر التلال خلف المزرعة، بينما ترتعش - مثل صوت عصفور صغير - غلالةٌ رقيقة من الليل المظلم؛ جعلت النجوم أكثر تألقًا، وأطلقت ضوءًا ساطعًا -إذا ما قورن بـــــرقتهما، وعندما يلاحظ البقرة المفقودة.

يتمنى أن تكون قد خرجت من الجرن إلى الحقل؛ حيث توجد بقرات أخريات، مع عدد من العجول الأكبر سنًا، لقد كانت وثيقة الصلة بالعجل، وحزينة، ربما تكون قد خرجت بسبب ذلك الميلاد المفزع.

ولم يستطع رؤية البقرة وسط الظلام؛ فحمل العجل الميت، عبر الحقل الخالي من الحشائش؛ بسبب ندرة المطر، ومن مكانٍ ما زأرت عربة نقل ضخمة، على الطريق بالقرب من الأرض، التي يلمحها هناك ثم ألقى بالعجل داخل البئر القديمة، عند طرف الحقل؛ إذ أراد ألا تراه "كيت"؛ لأن إرسال العجل الميت، إلى حيث يمكن معرفة سبب موته؛ يكلف كثيرًا، وهو يعلم جيدًا، أن على المرء أن يفقد شيئًا ما - أحيانا- دون سبب،أو إنك سوف تفقد شخصًا ما، واستغرقه الأمل في ألا تكون البقرة قـــد فُقدت كذلك.

المَزْرَعَة

تقع المزرعة على منحدرٍ واطئ، يبعُد أميالاً قليلة عن البحر، وقد اشترى والد "جاريث" المزرعة بعد الحرب؛ لأنه لم يشأ العمل في البنك الذي كان يعمل به بعد ذلك، وكانت المزرعة تخُص سيدة نرجسية عجوز، لمحها رجل البريد تُطعم دواجنها ذات صباح؛ مرتدية ملابس النوم، ولم تكن تملك أية دجاج في الأصل، فقط كان لها: زوج، وثلاثة أبناء ذهبوا للحرب، وقُتلوا جميعًا؛ واحدًا تلو الآخر بترتيب العمر، وعندما رأوها تُطعم الدجاج غير الموجود؛ أبعدوها إلى بيتٍ آخر، حيث ماتت

بأزمة قلبية، كما لو كانت لم تتحمل ابتعادها عن المزرعة. وعندما اشترى والد "جاريث" المزرعة؛ كانت آخذةً في الانهيار.

وقد انتقلت أسرته إلى المكان، منتويةً إعادة بناء المزرعة وإعادة تعميرها، لكن بعد شهور الحماس القليلة التالية؛ نفذوا القليل مما أملوا، واستقروا في المكان؛ حيث بدأت الأشياء تكتسب مسمياتها: الحجرات، والحقول.

في المنزل الجديد؛ بعدما تم إصلاح الأرضيات، وتغطية وتغليف الحوائط، وطلائها بدهانات لامعة، نُسقت الأشياء هنا وهناك. فإن المسألة شديدة الدقة، كما لو كان المرء يتخذ وضعًا محددًا لالتقاط صورة، كان ذلك غريبًا بالنسبة لـ "جاريث"، الذي كان صغيرًا وقتئذ.

وعندما بدأ المنزل يعتاد أناسه الجُدد؛ بدا أن الأشياء تلتمس راحة أكبر لنفسها، مثل: استقرار الأرض -صدفةً- وبصورة صحيحة -إلى حدٍ ما- ومثل خليط الأشياء، التي تتداخل في سور المزرعة، و بدءوا الاسترخاء والتنزه، حول المنزل بأحذيتهم، كما بدا للأطفال -قبيل ذاك بفترة وجيزة- أن المنزل قد أضطرب بشدة؛ نتيجة لهذا الاهتمام، إذ كان يبدو شبيهًا بهم؛ عندما مسحت أمهم وجوههم بمنشفة.

***

أخذت تفكر: "لقد رغبت فيه ليلة أمس"، "حقًا، ثم لا أعرف ماذا حدث". لقد تبخرت الرغبة بددًا، أصبحت باردة؛ كما لو كنت مُخدرةً عندما بدأ يلمسني، فحاولت أن أكون صبورة مع بعض الإغراء؛ لكن بدا أنه يعرف فتوقف، ولم يقل شيئًا، ويمكنني القول إنه كان غاضبًا، ليس مني بالفعل، وإنما كان طيبًا جدًا هذه الفترة، ولم يبدأ معي شيئًا من هذا قبلاً، ثم بدأت أنا هذه المرة؛ عندما شعر أنني لا أريد ذلك، ولا أدري لمَ أفتقد لمسات يديه. يا إلهي إنني أفتقدها."

لقد بَدأتْ - الآن - هذا الأسلوب من التفكير، كما لو كانت تخاطب نفسها بصوتٍ عالٍ، ومثل وجهٍ مؤطرٍ بالمرآة؛ أخذت تحدث ذاتها، بوصفه وسيلة للسيطرة، والتحكم في النفس، وتقييمها: "في محاولة للوصول إلى
معنى لهذا كله"، فإن النساء تدركهن الشيخوخة بسرعة؛ عندما يكبرن.

إنها تشعر بجسدها يتحرك تحت النسيج الخشن لقميصه، الذي ارتدته -على عجلٍ- لتنهض من السرير، وينعكس في المرآة خلفها، ذلك السرير غير المرتب. وتعود لتشعر أن جسدها الناعم، يمتلئ بالمياه التي تتساقط مع العُمر. مُحال أن ينظر إليها الآن فتواتيّه المشاعر، التي كان يحسها نحوها في الماضي، ولسوف يرغبها بسبب عنايته بها الآن، لا بسبب رغبته فيها، ويبدو الأمر كما لو كان سماحًا لامرئ بالفوز في لعبةٍ ما؛ إذ إنه من المحتمل ألاّ يرغب في جسدها، لذا تتساءل عن إمكانية قص شعرها، ليصبح قصيرًا مرة أخرى.

***

أحيانًا ما يخرجون في مرحٍ ، عندما يندمجون مع عجلٍ جديد، يذهبون في خفة، ويفعلون شيئًا ما. من المستحيل أن تخمن ما قاموا بفعله، إذا ما حاولت التفكير بطريقتهم؛ لأنهم لا يفكرون عندما يفعلوه، إذ إنهم لو قرروا الذهاب؛ فإنهم يستطيعون المُضي- لمسافات بعيدة، يتعثرون ويتخبطون، ولا يمثل لهم ذلك أي معنى، وكل ما يمكنك أنت عمله، هو محاولة العثور عليهم، وأن تأمل أن يكونوا بخير، وتفعل لهم ما في استطاعتك، أن تبقى قريبًا منهم، وتتفقدهم، وغالبًا ما يكونون بخير؛ ما إن يأتيهم العجل.

***

كانت بقـرةٌ مُـدرةٌ للـبن، البقـرةُ المبُقّعـة الوحيـدة، التـي يخـتلط شعرها الأبيض بالأحمر؛ مما يجعلها تبدو حمـراء تقريبًـا ـ بلـون الآجـر ـ في حين كانت البقـرات الأخريـات بيضـاوات، أو حمـراوات، أو بيضـاوات بخُلطـة حمـراء. لكـن لم يكـن لـديهن الكثـير مـن ذلـك، وكانـت غالبيـة البقـرات مـن فصـيلة: "الفريزيـان"، الأبقـار السـوداء المخلوطـة بـاللون الأبيض، كالتي تظهر في برامج الأطفال، التي جعلت "إيمي" تعتقـد أنهـن يشبهن ألغاز الكلمات المتقاطعة، وهم يحتفظون -الآن- بعدد قليل مـن البقرات؛ عقب تحديد حصة الأفراد منها، وكانوا قد جلبـو ا العديـد مـن البقرات، ولكن عندما تحددت حصص الأفراد، توقفوا عن ذلك؛ إذ إنه قد أصبح من الصعب عليهم شراء تلك الحصة، غالية الثمن، كما أنهـم كـانوا يمتلكون بقرات جيدات، يحتوي حليبها على زبد جيـد، يصـعب معـه أن يبقي الإنتاج منخفضًا، وإلا فعليـك أن تـدفع ضرائـب كثـيرة؛ حـال كـون إنتاجك فائضًا، وقد توقف العديد من صغار الفلاحين حـولهم عـن عمـل منتجات الألبان، وتركوا ذلك للمزارع الضخمة، التي تميزها تلك الحصـص الرسمية، وهم - عمومًا- يربون الأغنام، حيث باعوا الكثير مـن البقـرات، وأبقوا على القليل؛ من أجل لحومها وألبانها -خاصة- لكن فيما بعد؛ كان ذلك من أجل الإبقاء على رصيدٍ من البقرات لديهم، وكـــــان "جاريث" سعيدًا لأنهم احتفظوا ببعض من البقرات البلدية؛ لأنها كانت أقل جشعًا من البقرات "الفريزيان"، وكانت أكثر سعادة بالغذاء؛ لأنه دون حشـائش المرعى، كان من الصعب تغذية أبقار من هذا النوع.

كيرلي[1]

تمعن في الأرض الجافة، وهو يعلم أن الجو حار ملهب؛ بما لا يسمح بظهور علامات -الآن و لمدة أسابيع- من: آثار حوافر، أو أخفاف، أو مخلفات حيوانات. وأن فرصته الحقيقية؛ ستكون عندما يجد أثرًا حديثًا لبقرة، أو كسرًا في أحد أجزاء السور، يشير إلى أنها قد حشرت جسدها الضخم خلاله، وقد تظن -أنت- أنه من الصعب عليهن التحرك؛ مع كل هذه الحمولات الثقيلة في ضروعهن، لكنهن حيوانات ضخمة صلاب، يستطعن اختراق الأشياء؛ عندما يردن ذلك.

هاهو يلتقط حجرًا خشنًا صغيرًا، ويستخدمه في فك جديلة حبل، لا يستطيع فكها؛ دون استخدام إصبعه "المفقودة". إذ لم يستطع إيجاد إصبعه الجلدي،الذي كانت "إيمي" قد اشترته له باختيارها الشخصي- في عيد الميلاد التالي لفقده إصبعه الحقيقية، قائلة له إنه يقوم بأعمال كثيرة: "لذا يمكنه أن يقوم مقام إصبعك..". لقد أحب ابنته من أجل هذا، من أجل طريقتها في تحويل المآسي إلى أشياء بسيطة، باكتشافها إجابات سريعة وبطريقة ساحرة.

يستغرقه فك الحبل وقتًا، أخذ يفكر الآن بالتدريج: "إن قوتي ستتلاشى"، وعندما يحرك البوابة تنهار وتتداعى مصحوبة بأنّة صعبة. لم يغضب من البوابة، وهو ينظر بعيدًا نحو البحر.

ففي ذلك الصباح؛ كان قد شاهد الفجر، وهو ينبثق من الأرض، وكان طائر وحيد؛ يغني مثل طفل يتحدث إلى نفسه -وهو يلعب، وفكر في ذلك الليل الآخذ في الانتهاء، وفي العجل الميت الساكن، وفي البقرة المفقودة، وفي ذكريات والده، التي يقوم بقراءتها؛ عساها أن تُعينه على

---

[1] تجَعْدُ الشَّعْرِ

النوم، أو أن توقفه عن التفكير في أمور أخرى، مثل: الأرض التي يرغب في شرائها، وجسد زوجته الذي يرغبه، ورأى كم كانت مخيفة رغبته الشديدة في جسدها الليلة الفائتة،ولأن الرغبة سوف تزول، فمن الغريب أن تخفي سراً مثل: مدى رغبتنا في أجساد بعضنا البعض.

كانت الجبال الأكثر صلابة؛ تنتصب -وقتها- قائمة، مثل الغضاريف العظام، على مدى قريب أمام عينيك، ويسيل الضباب من أعلاها، منزلقًا نحو البحر الكبير؛ حتى يتحول إلى سحابة، ترتفع إلى السماء من جديد، وكان البحر أشبه بزجاجة مبتلة تحت الشمس.

وللحظة قصيرة -عند ذاك الفجر- انتشرت البرودة، مثل: دفقة أخيرة في أنفاس الإنسان؛ ثم هبط الدفء، جاء بطيئًا، وكاملاً، وحقيقيًا، مثلما حدث طوال أسابيع سابقة.

يشعر الآن ـ والوقت لا يزال مُبكرًا ـ بالدفء يكمن فوق أكتافه، ثم يسري هابطًا نحو الحقول المنحدرة. والبقرة غير موجودة هنا.

العصافير تتجمع، وتغطس في ركن الحقل؛ حيث أزهر ربيع الطبيعة عشبًا كاسيًا وكثيفًا، مستمدًا الندى من رحيق الأوراق.

اختصر الطريق عبر الحقل، وأسفل شجرة الحسك القديمة، ثم التوتة الملتوية المتعلقة بالتربة الجافة لضفة النهر، حيث كان المجرى جافًّا كذلك؛ بينما تخرج المياه هنا وهناك، من باطن الأرض، مكونة بقعًا من الطين، المنقط بأعواد البوص الأخضر اللامع، وآثار أقدام الطيور، لكن الماء لم يكن يجري. وهناك متناثرات من الأصداف المكسورة، حول صخرة حادة؛ حيث جمع طير البكاشين هذه البزاقات؛ ليغتذى بها، وهو يحب أن يسمع هذا الصوت، صوت التكة الحادة الصافية، لتكسير الأصداف على الصخور؛ إذ يخلب لبه، ذلك الطير العبقري الصغير.

يتتبع مجرى النهر، هابطًا أسفل السور، الذي ينتصب بلا فائدة بين الضفتين، وعند الحقل التالي، حيث توجد البِرْكة، تشرب العصافير من مياهها، وتأكل معها الذبابات الصغيرة، التي تطن في جماعات كثيفة، لأن الحرارة لم تشتد بعد، ويتذكر أنه نسى أن اليوم؛ عليه أن يذهب ليجمع البط، وربما يشعر مرة بالنسيم - قليلاً- وهذا العام أتت العصافير مبكرًا.

تأسره فتنة البحيرة، وجمال العصافير لبرهة؛ وعندئذ يدور -بعدما أدرك عدم وجود البقرة هنا- ويبدأ في رحلة العودة للمنزل.

في شهور الشتاء، تنساب المياه أسفل المجرى، جالبة معها القاذورات والحجارة، وهذه مع أوراق الأشجار المتساقطة، تهبط في الأخاديد والمصارف، حتى إنها -بعد فترة- تسدها؛ فيسيل الماء في فوضى عارمة عبر الحقول، حيث يُغذي الحشائش الرقيقة، ثم يغور في الأرض، التي تكون خصبة وسوداء هنا.

في نهاية الأسوار والمجاري المائية، تجد دائمًا شجيرات الشوك بأزهارها الصفراء في مكان ما، لكنها تزهر بسرعة في الربيع، فأولاً تينع الصفراء منها، مثل: زهور السيلانداين، ثم أزهار النرجس، وبعدها تتبرعم الزهرات الهندية البرية الهندباء، وأخيرًا زهرة الربيع، بعد ذلك تأتي الزهور البيضاء: ومنها زهرات شقائق النعمان، وجحافل من زهرات الثلج، التي تبدأ في التبرعم، ثم تُزهر أعواد نبات الستيتشورت فهذا اللون يغطي أولاً الأرض، ثم تليه باقي الألوان- مثل: البنفسج، والجُريسات الزرقاء، والكامبيونز، ووسط الغابات، قريبًا من النهر؛ ينبت الثوم البري ـ في يوم كهذا ـ مع النسيم المتصاعد، بخفةٍ متحولاً من البحر، باتجاه الجنوب الغربي، عابرًا الحقول. وقد تأتي رائحة الثومِ حادة ومُرّة؛ لكنها رائعة عبر المزرعة، مبكرةً في الصيف، لكن الإزهار قد انتهى الآن.

كان الكلب جولش، قد اتبعه هابطًا الطريق، يقف ضئيلاً ونحيفاً بجوار البوابة، إنه كلب قوي، متأهب ناعم الشعر، وعلى بُعد قليل من الطريق؛ سوف يجد كيرلي الكلب الضخم العجوز، متكومًا، ومسترخياً تحت الشمس على الممشى، وذلك بعده بنصف المسافة ـ وهي تبعد بقدر ما يستطيع أن يذهب فقط ـ وقد بدأ الكلب سيره بسعادة وكله أمل، وسار عبر الممر، وراء الكلب الصغير، ثم على حين غرة؛ أنهكه التعب، ورقد -هناك- تحت الشمس.

ينظر الكلب العجوز متطلعًا؛ وهو يسمع عجيج محرك سيارة، تتحول بسرعة إلى الطريق عبر الحقل، وسمعها "جاريث" كذلك. هناك جوع لطيف يسري بداخله، ويريد الآن بعضًا من القهوة، في حين ينتصب المنزل مخادعًا البصر عند التل.

وينظر عند موطئ قدميه؛ فيرى الجير قد تراكم فوق حذائه الجلدي القديم، والجير لم يختفِ من الحقل؛ لأن المطر لم يسقط بعد، فينظر إلى الحقل، وإلى الأرض الجافة، ويطأها بقدميه، إنه قلق جدًا على الأعشاب، إذ ليس من الصواب، أن تُطعم الحيوانات تبنًا في هذه الفترة من السنة، مع قدوم الحملان والعجول الصغيرة للحياة؛ تحتاج الحيوانات إلى حشائش طازجة، ويعرف ـ أيضًا ـ أنه مع قدوم أول مطر، سوف يدفع الجير بعيدًا، ويخرج من الأرض الجافة المتشققة.

***

أسقطت هي قطعة لحم الخنزير، في الوعاء الساخن، وأخذت قطعة اللحم تطرقع في الزيت المغلي، ثم بدأت تتكور، وتضع قطعة اللحم التي طهتها الآن في طبق قديم، ثم وضعته في الفرن الساخن؛ لتبقيها دافئة، وقطعة اللحم في الوعاء تطرقع، وتبزق في صخب؛ فقامت بإطفاء الموقد، حينها يمتلئ المطبخ بدخان أزرق خفيف.

قاموا ببناء هذه الزيادات في المنزل، وحوّلوا المطبخ إلى مكـان لتنـاول الطعام -حتى الآن مازالت الحوائط، غارقة في نور الصباح؛ في حين ينفـث المنزل الحرارة، التي اكتسبها خلال النهار إلى خارجه، وتبرز أوراق الحائط في قطع متفرقة منه، مثل لحاء شجرةٍ متهالك. هناك ندى خفيف، قرمزي اللون، يتناثر هنا وهناك، كل هـذا لـيس مهـمًّا بصـورة أو بـأخرى، وغـير مقلق على الإطلاق، إذ لم يلاحظوا للآن؛ أن المنزل يتسـم بتلـك السـمات، كالشجرة تمامًا. يوجد في المطبخ موقد؛ به عدة أنابيب للغاز، قريبـة منـه إلى درجة خطـرة، ونافذة صغيرة، زاد سُـمكها مـن فـرط تكثـف الأبخـرة عليها، مُشرَعة بصورة دائمـة، لكنهـا لا تـزال مضـبّبة، ونتيجـة حـائط بهـا مناظر للمزرعة، هدية من صانع الأغذية، وهناك حـوضٌ قـديم، مصـنوع في "بيلفاست"، في مواجهة الحائط، تخرج منه ماسورة عبر الحائط؛ لتصل إلى صنبورٍ، يعْلق به خرطومٌ جاف، أخضر اللون، طوله نصف قدم.

تنبت أسفل الصنبور مباشرة الطحالـب، والأعشـاب الخضراء بكثافـة واستقرار. وتجد قطع الفورمايكا، دائمًا نظيفة، لدرجة أنك ترى التصـميم الفني الغريب المتهالك فوق سـطحها، وعليهـا آنيـة السـكر البلاسـتيكية، وأكياس الشاي، والبسكويت - المسروق باستمرار - وبعـض ألـواح دولاب الفضيات، معلقة بصورة مـا، مُثقلـة بالأشـياء نصـف المسـتعملة، وعلـب الفول، والفاكهـة التـي لم تُسـتخدم مطلقًـا. فتقـوم هـي بمسح بلاطـات الأرضية؛ في حين تستمع إلى طرقعات اللحم أثناء طهوه، وتمتـد توسـعات المطبخ، من الحجرة التي يُعـد بهـا الطعـام أصـلاً، ويطلقـون عـلى هـذه الحجرة - عادة- المطبخ أيضًا، لكن كل الأمور تحـدث هنـا، وتـرى مكـان الجلـوس، ومنضـدة العائلـة، والنافـذة الكبـيرة التـي تطـل عـلى النصـف الغامض الخشن للمزرعة من الخلـف، وهنـا أيضـاً تُفـتح رسـائل البريـد،

وتؤكل الوجبات، وعندما يـتم عمـل كـل شـئ، تنتهـي واجبـات الجميـع ويدخلون في حديث متبادل.

تختلف بلاطات الأرضية للمنزل، عن بلاطـات الأرضـية للجـزء المبنـي حديثًا، حيث إنها حمـراء، مصـنوعة مـن الطـوب، وهنـا تـرى البلاطـات قديمـة، مربعـات مـن الصـخر، تحبهـا في غمـوض؛ بسـبب ألوانهـا التـي تكتسبها، تحت رعاية مسَّاحَتِها المبتلة الحانية. أحيانًا مـا تحـب أن تظـن أنها الوحيدة، التي ترى هـذا، لأن هـذه البلاطـات تُبـدى ألوانهـا؛ عنـدما تكون غارقة في البلل، ثم تجف بسرعة، لحظة تحركها عبر الأرضية، وهذه الطاقة الطفلية، ما تزال تمورُ داخلها، إنها متعة تحب أن تخفيها. تـتراكم أكوام من القمامة هنا وهناك، ومجموعات ضئيلة مـن الأتربـة، والأشـياء المتساقطة، مثل: نشرات الأدوية، وقطع البنسات النقدية، وأربطة الشعر التي غطاها التراب، إنها عملية آلـية تقوم بها؛ وهي منتظرة شـئ مـا، أو حال حديثها القلق، فتأخذ الفرشاة، وتزيح القاذورات من الأرضـية، وقـد جمعتها في أكوام متناثرة، وفيما بعد سوف تتناول سلة المهملات، وتقـوم برفعها، وإلا جاءت القطة ؛ لتهاجم تلك الأكوام، وتقاتلها بشراسة، ووفقًـا لما يلتبسها من مزاج: إما تضحك من القطة، أو تصرخ فيها.

تـترك الفرشـاة بجانـب البـاب، وتقـوم بـإخراج قطعـة اللحـم مـن المقلاة،وتضعها في الطبق داخل الفرن، ويمتد ممشى ـ البـاب مـن المطـبخ؛ حتى الفناء الخلفي للمنزل، وهو ما يأتي ويخرج منه الأصـدقاء الطيبـون والعائلة خلال النهار، وأسـفل تلـك الوحـدات توجـد: أجولـة البطـاطس، وأحواض وأواني تنظيف الأشـياء المتراكمـة، وقـد صـدئت واجهـة الثلاجـة وتعرجت؛ لكنها كانت تعمل، وبجوار تلك الثلاجة، وُضعت مجموعة من الأدراج، لا تلاءم الزمـان، ولا المكـان؛ تجمـع السـكاكين، والشـوّك، وبـاقي الأشياء، وبينما تقوم بتقطيـع الخبـز، لتضـعه في المقـلاة ؛ تتمنـى امـتلاك

مطبخ جديد، مطبخ يلمع مزهوًّا بالنظافة، لكنها تطمح في الأساس إلى التناسق. خلف المنزل، وعبر الفناء الخلفي الصغير، المحاط بصبة الأسمِنْتِ المتكسرة؛ تنحدر الأرض لأعلى، وللحظة ترى النباتات المتسلقة، قد جفت وماتت من طول الصيف، ثم يصبح المنحدر حادًّا، وتبدأ الغابة، وأوراق الشجر شديدة الكثافة، في هذا العام، وإلى جانب المنزل - حيث تستوي الأرض بعض الشيء- يوجد مرعى خصبٌ، وأرضٌ حصوية، تكونت من أحجار تخلفت من بعض الأبنية، التي لم يجدد بناؤها بعد ذلك أبدًا، ويمتد المرعى بطول الحافة الكبرى للجرن، ويضيع حيثما تبدأ شجيرات التوت البري، قبيل الغابة مباشرة؛ فتقوم بفتح الباب، كيما يتنفس المنزل، ويتطلع إلى المرعى.

رُقْعَةُ الَخضْرَاْوَاْتِ

حيث يوجد النبات المتسلق الذاوي، فوق المنحدر؛ عملوا بجد عندما كانوا صغارًا ليستفيدوا بذلك، أولاً: قاموا بتنظيف مسافة كافية؛ حتى لا تسمح بانتشار النار منها إلى الأشجار، ثم قاموا بإحراق النبات المتسلق الجاف، وشجيرة التوت البريّ، وشتلات شجيرات البندق الرفيعة، التي خرجت عن حدود الغابة، وقد فعلوا ذلك نهاية الصيف، ثم عندما أخذت الأمطار الكثيفة في الخريف تدفع الرماد، والأخشاب المتكسرة نحو الأرض؛ قاموا بحرث الأرض، واستمروا في الحرث يومًا كاملاً؛ حتى أنهكوا أنفسهم، وفي اليوم التالي؛ استأجروا آلة زراعية، وقاموا بتهيئة نصف الفدان من قطعة الأرض، وهو ما يُعد عملاً صعبًا، وقد ذكرتهم رائحة الآلة الزراعية بمحركات القارب، وكانت العصافير أول ما جاء ليلتقط اليرقات، والديدان، وبدأت تدور حولها، وعندما دخلوا ليتناولوا قدحًا من الشاي، ويتحدثوا معًا في دماثة ؛ جاءت الطيور الأكبر حجمًا، والأكثر فزعًا، وأصبحت الأرض مزدحمة، وأكثر جوعًا. هبط الصقيع، ولم

ينمُ شئٌ على وجه الأرض، وعندما انفك الشتاء؛ قاموا بحرث التربة المتشققة مرة أخرى، لتهويتها وتهيئتها للبذار.

قاموا بزرع بذور البطاطس، والكرنبالملفوف، وصفوف طويلة من البصل، والبنجر، والراديش، وكان لديهم جزر، وفجل مما يحتاج إلى تشذيب باستمرار، ويسبب متاعب كثيرة، ولديهم - كذلك- البسلة، والخس، حتى عند فشل بعضها في النمو، كان لديهم الكثير من الخضروات لأنفسهم، وقد زرعوا أيضًا شجيرات التوت، التي مازالت هناك للآن، لكن عليك أن تشق طريقك إليها بصعوبة، حينئذ وعند لحظة معينة، تتساءل بهدوء: "متى لم يقوموا بزراعة أي شئ بعد ذلك؟ ومتى استعادت الغابة هذه الأرض؟" ترى هل كان ذلك بعد الفشل الثاني، لكنها لا تتذكر.

الإِصْبَعُ[1]

وضعت المائدة في الداخل، والسكاكين، والشوّك، والأطباق في أكوام، على مفرش من نسيج الفينيل، وبدأت في قراءة قائمة دليلببعض احتياجاتها، وهي أشياء تأمل أن توقف تقدمها العمري، وتساعدها على استهلاك مياه أقل، وتعاونها على أن تبدو أقل تعبًا، وتمنحها الرغبة في الجنس أكثر. بالنسبة لعمرها؛ هي امرأة رائعة الحُسن، لكنها لا ترى ذلك؛ لأن جمالها بدأ يهجرها، وهي تعلم هذا، دخل هو عليها، ماسحًا قدميه على الشبكة المعدنية، أمام الباب الخلفي، ليس بسبب حاجته إلى فعل ذلك؛ وإنما بسبب العادة، أو ربما يكون ذلك إعلانًا بحضوره،وإشارة يؤدونها دائمًا، دون التحدث بشأنها على الإطلاق، فلديهم الكثير من تلك الأشياء، عندما كانوا أصغر سنًّا. تقوم بـ تشطيف غلاية القهوة، وتدفئ

---

[1] وقد تكون (الأُصبُع)، بضم الألف الأولى والباء؛ وكلاهما صحيح معتمد، المدقق.

الكوب بماء ساخن، من البراد البكرج، الذي قامت بغليه عدة مرات؛ بينما تقبع في انتظار عودته، ولم تقم بإعداد القهوة، أشياء عليها ألاّ تفعلها، لقد أخافتها القهوة بشأن قوة نكهتها، وطعمها عند إعدادها؟! فهو يُعد القهوة كل يوم لنفسه فقط، كما لو كان هو الوحيد الذي يشرب القهوة، ويجهز قدرًا كبيرًا من القهوة، في ذلك الوقت من الصباح، يكفيّه طوال اليوم، ثم يعيد تسخين الكمية في وعاء، كلما احتاجت للتسخين، وذلك يجعلها أكثر تأثيرًا، مع كرّ النهار، ولا يستطيع أحد آخر أن يلمس الوعاء، وهذا ما يفسر لها عدم نومه، فإن أول أكواب قهوته كل صباح، مكون من بقايا قهوة الليلة السابقة؛ لأن طحن حبوب البن، يوقظ أهل المنزل، وهو لا يريد ذلك، ولأن مكان نوم الأطفال، يقع فوق السقف الرقيق للمطبخ مباشرة. يجلس إلى المنضدة، وقبضة يده مفتوحة، يحرك إبهامه فوق العقلة الأولى لسبابته، بالطريقة التي اعتادها؛ فيُحدث صوتًا، أشبه باحتكاك الجلد الجاف ببعضه.

ماذا عن الخلطة؟

فيرد: عليها أن تنتظر.. ويعيد حك إصبعه - وهو يفعل ذلك دومًا- عند المائدة، يتحدث أو يقرأ الصحيفة؛ و مقبض الكوب عالق بيده، لدرجة أن ذلك الجزء من يده أصبح ناعمًا ولامعًا؛ كلما كان في راحته، ويقول:

"أنا لا أعرف.. لقد فحصت كل الأماكن المعروفة، لكنها لم تكن موجودة هناك، لقد ركبت رأسها و ذهبت"، ولم يخبرها شيئًا عن العجل المولود؛ ميتًا توًّا. فتقول:

"من الطبيعي أن يكون اليوم، وكان عليّ أن أنهض لفحص ذلك"؛

يرد بهدوء: "كانت ستذهب على أية حال".

ينظر إلى الجزء المفقود من إصبعه الصغير؛ ويُحْدث نفس الصوت بإبهامه مرة أخرى، ومازالت هي تلوم نفسها؛ لكونها السبب في خسارته، إذ كان يحاول أن يفصل أنبوب النزح "سحب المياه"، عن الجرار الجديد، وقامت هي بحركة ما، في اللحظة التي علَقَ فيها الترس بيده، وبتر الإصبع. يتناول رشفة كاملة من القهوة، كان الجرح كاملاً، ونظيفًا؛ فاندمل جيدًا، وكان من الممكن أن يفقد يده، هذه هي الطريقة التي ينظر بها لما حدث، وهو يحب ذلك بصورة، أو بأخرى. كانت قد أحرقت الخبز؛ فذهب ليخبز غيره، بينما حاولت معالجة الخبز الذي احترق.

وأخذت تقول: "إن الطبيب البيطري قد اتصل بشأن الكلب كيرلي.."؛

رد: "يــاه..."

أضافت: "إنه يريد الحضور اليوم".

إنه يعلم أن الطبيب البيطري، سوف ينهي حياة الكلب العجوز، ليس اليوم كما يظن، إنه لأمر صعب؛ أن يفعل ذلك اليوم، آه لو كان يستطيع العثور على البقرة؛ فيقول لها: "يجب أن تتناولي بعض الفطور". يا له أمر غريب، أن نأخذ الأسماء السخيفة للحيوانات، مأخذ الجد. فرقع صوت سُقاطة الباب؛ ودخلت "إيمي"، مرتدية قميص نومها، وعباءتها مطوية بيدها، وإبهامها في فمها. تتوجه -في تثاقل- نحو المقعد القديم، وتتكور هناك، وبصحبتها دميتها، الشبيهة بالحمار الوحشي- المخطط، باللونين: الأخضر والقرمزي، إنها تهبط للمطبخ؛ كلما سمعت والديها يتحدثان في الأسفل، صباحًا.

فتقول أمها: "مرحبًا حبيبتي"، وتبرق عيناها نحو أمها، وتنظر لوالدها مسرعة، وفي خجل يمر شئ سَري فيما بينهم؛ فتبتسم وتجلس، ويوقفون الحديث عن البقرة. يجلس هناك حاكًّا إصبعه، متطلعًا إلى عقلة إصبعه المتبقية، في شغف.

ويقول: "لسوف يكون الجو حارًّا اليوم".

الفَصْلُ الثَّـــاْنِي

المَطَر

سقط مطرٌ غزير هناك، مُبكرًا من العام، خلال الخريـف المنصرم؛ هـبط المطر دافقًا؛ وامتلأت الحقول بالعشب، وعلـت مجـاري الأنهـار مُسرعة. عند ذاك؛ وفي وقت معين، من صباح الحادي عشر من مارس؛ تغـير شـئ ما، إذ توقف المطر، وطلعت الشـمس لافحـة، سريعـة المَـرِّ، قويـة الأثـر، وهبت عاصفة مغناطيسـية أرضـية، ووقعـت ظـواهر كسـوف الشـمس، وصرعت الصواعق الناس، وأصـابت أصـحاب القلـوب الضـعيفة بـالمرض، ومات بعضهم، وارتبكت الأجهزة العصـبية الكهربيـة في أجسـامنا، وعنـد كثير من الناس أيضاً. في حين أتـت العصـافير مبكـرة، وقـد حـطَّ في ذلـك اليوم؛ سرب من الحمامات المندفعة، بينها يمامـة بيضـاء في المزرعـة، أتـوّا فجأة، وللغرابة كانوا تائهين تمامًا...

أما "إيمي"، فإنها قد أحبت اليمامة الشديدة البياض كثيراً.

ولم يـوافق أحد – وهـم ليسـوا مـن الخبراء على أية حال- على وجود علاقة بين العواصف، وبين التغيرّ الذي حدث في الأشـياء، لكـن عواصـف

كهـذه، بإمكانهـا أن تعطـل السـفن، والأقـمار الصـناعية. وكانـت وزارة الحربية دائمًا ما تراقب تلك الظواهر، وفي سجلاتها نجد مكتوبًا: أن عاصفة ١١ مارس، كانت عاصفة مدمرة. ثم أمطرت السماء في مايو، ويتذكر جيدًا رجال جز الصوف، القادمين لجز الأغنام - كانوا ثلاثة رجال- بعملياتهم وحركاتهم، التي لا توصف. وهبطت الأمطار فوق السطح الرقيق؛ في حين طنّت مقصات الرجال خفيفًا، لقد كان الهدوء سائدًا. فقد جاء الرجال الثلاثة -أب مع ابنيه- لجز صوف الأغنام فقط، يكسبون عيشهم، في مثل هذا الوقت من السنة، بالمرور على المزارع، يقصون صوف الأغنام، ويتقاضون ثمن ذلك، لذا قاموا بعملهم سريعًا، وقامت: "إيمي"، و"ديلان"، و"كيت" بجمع الصوف، وطيّه في أكياس، وأحكموا تلك الأكياس بمشابك خشبية، وأمسك "جاريث" بالنعاج، وساعده "بيل"؛ في حين يعمل الحلاقون عليها بسرعة - كان اسم أحدهم: "جويليم"، لكنهم نادوه "بيل". وكان الرجال يتوقفون بين آن وآخر؛ لتزييت مقصاتهم، وتبقى الأغنام مُثبتة بصورة كوميدية بين أقدامهم، أو يسعون فيما وراءهم للإمساك بصبغة اليود؛ لمداواة جروح الغنم، فيما لو أدت عملية القص لجرح إحداها في غير اكتراث. كانوا يعملون بسرعة، لكن في يسر، كما لو كانت أجسامهم خُلقت فقط لهذا الغرض، ربما كانوا من أصلاب سلسلة طويلة، من جزازي الصوف. مسألة وراثة، وعندما توقفوا لتناول الطعام؛ لم يتبادلوا الحديث، مجرد كلمات شكر واضحة متواضعة، لكن لا حديث، كانوا رجالاً كاملين.

الفَصْلُ الثَّــالِثُ

البَطَّــاْتُ

دقت الثالثة صباحًا، ولم يكن سعيدًا بخروجه لإحضار البطات. نادته أمه قائلة: "عليك أن تخرج لجلب البطات، فإن البقرة قد تاهت، وعليك أن تخرج أنت لإحضار البطات".صرخ "ديلان"؛ ثم أقسم على أمه، لأنه عرف أن والده قد خرج إلى الحقول، إذ سمعه وهو يخرج بعد الإفطار مرة ثانية؛ بحثًا عن البقرة، كان قد أطلق سبابًا بكلمات غير مسموعة، حتى إن أمه اضطرت للصراخ فيه متسائلة:

"ما تقول؟"

فأعاد ما قاله بصوت زاعق، لأنه يعلم أن ذلك يضايقها أكثر. ثم أخذ البطات متجهًا إلى البركة. كل عام يضعون مائة بطة عند البركة، هناك - فعلاً- دجاجات مَغْربية، ومعها بعض الدواجن، فتأتي الدواجن البرية الأخرى لتلحق بهن، مع بعض بطيطات الماء، الشبيهة بالسهام الرفيعة الصغيرة، جميلة المنظر، وسريعة الحركة، وعنيفة، على النقيض من البط كله. كانوا يغذون البط بالحبوب، ويقطعون أعواد البوص؛ حتى لا

يقترب الثعلب من الدواجن، دون رؤيته، واعتنوا بها بدقة، ثـم اصـطادوا منها أعدادًا كثيرة -بقدر ما يستطيعون- رميًا بالرصاص. هـذا شـئ جيـد، فإن البطات يمكنها أن تُشكل تهديـدًا، والنـاس تغـرهم البطـات بهـدوئها الظـاهر، وتتسـاقط بسـبب غبائهـا الواضـح، في ابتسـاماتها وصـيحاتها المجنونة:

كواك.. كواك..،

لكنها أشياء خطيرة، تتجمع مـع بعضـها، مثـل: مـدمني الاجتماعـات، والحفلات. في المدينة -وهي مدينة مينائية جميلة، على الطراز الجـورجي غير كسولة، ممتلئة بالألوان- خرجت طيور الـبط عـن السـيطرة. والنهـر يصدُر من الوادي، هابطًا ببطء نحو السدود، وتحت كوبري الطريق، ثـم إلى الميناء، وأخيرًا إلى الشـاطئ، وهنـاك مكـان عـلى أحـد جـانبي طريـق الكوبري، حيث يمكنك -أحيانًا- أن ترى تيار الماء، راجعًا عند دخول المـد، وأحيانًا -أيضًـا- مـا تـأتي سرطانـات البحـر الضـخمة: الكابوريـا، وأسـماك الموليت، في الجزء المالح من المياه المتلاقية، ثم تأتي جماعات البط بعدها عند مصب النهر...و بوصفها جزء مـن خُطـة عامـة، لجعـل القـارة تبـدو أفضل؛ نالت المدينة الصغيرة دعمًا ماليًّا لتنمية نفسـها، وقـد بنـوا مينـاء لرسو القوارب الصغيرة، وقـوارب الصـيد، التـي قـد تبقـى للعمـل خـلال الشتاء، الذي لا تمكث فيه السفن الغالية، مثـل: اليخـوت؛ بسـبب رداءة الطقس هناك. وقد ملأت أسراب البط أركـان المينـاء، وأخـذت في إخـراج فضلاتها في كل مكان. كان هناك المئات مـن البطـات، وعليـك أن توقـف سيارتك -أحيانًا- لتتركها تعبر الطريق. أو تراها بالطريقة التـي نعرفهـا في ممارستها للجنس. فمن الملاحظ أنك قد تجد بطًّا ما هناك دائمًـا، والأكـثر لفتًا للنظر أنها غالبًا ما تمارس الجنس في الماء، والذكر يكاد يُغرق الأنثـى، التي تركز انتباهها بشدة؛ كي تبقي طافيـة عـلى المـاء، وكلاهـما يجـب أن

يتعامل بـ: الأجنحة، والمناقير، والمياه، والريش -أيضًا، ويبدو المشهد مفزعًا، لكنهما يستمران في التزاوج. لذا فإن هناك عددًا هائلاً من البطات، تتغوط أينما حلّت. أصبحت مشكلة للسياح، أما المسؤولون المحليون فقد كرهوها، وتحدث الناس بذلك في الحانات، وإذا وقفت بطابور أحد المحلات؛ فسوف تسمع الناس يتحدثون عن البط، وعن آخر أخبار العنف الذي مارسوه، وإذا حاولتَ أن تشرب كأسًا بهدوء في الميناء؛ ستجدها هناك، جالسة بلا إذن، تتطلع إليك مبتسمة في استهزاء مُستفز، حتى إنك لو نشرت غسيلك مرة، فإن هذه البطات تعلم - بصورة أو بأخرى - وتتدبر أمرها، متحدية قواعد الطبيعة؛ لتلقي فضلاتها فوق الغسيل، وغائط البطة ليس شيئًا لطيفًا، إنه في اخضرار براز طفل صغير، استمرت تغذيته على نبات البروكولي لعدة أسابيع. وقد غطت البطات كل أسطح اليخوت الفخمة، وتدخل إلى إطارات العربات، بل إنها تتسلق عربات اليد، وتدخل أي مكان تراه مريحًا و مهجورًا.

الأطفال يخشون تلك البطات؛ لأنها لن تهرب منهم، لذا فهم لا يطاردونها، حتى إن هذه البطات، تجلس باستمتاع وسط تلك الضجة الهائلة الممتدة، التي تقوم بها فرقة موسيقى المدينة، التي كانت تعزف الأناشيد والأغاني عشية الآحاد بالميناء. إنها تبدو بطات لا تقهر، وقد تم تشكيل لجنة، ظن بعض أعضائها؛ أن السبب في إخراج هذا الكم الهائل من الفضلات، هو قيام الناس بتغذية هذا البط بقطع البطاطس المقلية الشبسي، ومهما يكن من شأن أولئك الناس؛ فإنه ومن المفترض، أن تجد البطة غذائها في النهر، أو البحر، هذا هو المقرر لها طعامًا. لكنها كائنات كسولة، وعليه فقد حوّمت فوق كل ما يرميه الناس لها، تقاتل نوارس البحر في سبيل ذلك، وكذا تحارب الزرازير، والحَمَام، حتى لو اضطرت

لمقاتلة بعضها. تلك الوجبات الفقيرة؛ تجعل البطات المسكينة تتأفف. هذا ما قاله أحدهم، وقد كانت الإجابة:

"إن علينا أن نمدهم بطعام أفضل، عبقري..!"،

وهكذا حاولوا ذلك، لكن تلك لم تكن الإجابة الصحيحة، لأنها التهمت الطعام المقدم إليها، وأكلت الأسماك، وشرائح البطاطس، ومارست الجنس أكثر من ذي قبل. لم تكن مؤخرات البط أكثر ضيقًا عما هي عليه الآن، ولكن المشكلة هي أنها أصبحت - ببساطة - أكثر عددًا، وإطلاق النار عليها؛ يمثل وجهة نظرٍ أخرى، فإن السم قد يقتل أي كائن آخر، في حين قد تستمر البطات في حياتها تستخدم مكرها كعادتها، لذا كان إطلاق النار عليها؛ هو الطريق الناجع الأكيد، للتخلص منها. وقد أصبح - الآن - إطلاق النار على البط -قل أو كثر- بنفسك أمرًا مشروعًا، عالمين أن ذلك يجب أن يتم سرًا، أو هكذا تخبرنا الأسطورة، باعتبار أنها واحدة من القواعد العديدة، التي يعرفها الناس بالفعل.

وعند هذه النقطة بالذات؛ تُعد البطات ملكًا للملكة، وإنها لملْكية عُليا على أية حال، وعلى كل؛ فإنه لم يقم أحد بهذا العمل أبدًا، ولم يرغب أحد في أن يكون هو البادئ. إذ إنك إن تجولت حول أية مدينة جورجية، تضرب البط بالنار، فإنك سوف تُسجن سِراعًا. ثم إن هناك المشكلة الرئيسية، ماثلة في مواجهة النداء القائل: "أطلقوا النار عليها"، لأن البنادق تحدث ضجة عالية، ولن تكون صالحة لهذا العمل، وإذا طمحت -بإصرار أكثر- في الحصول على بندقية صيد؛ فلسوف تواجه مشكلة أخرى، سيكون عليك عندئذ- ببساطة- أن تكون قريبًا من البط، أكثر من اللازم؛ لأن البندقية مصممة بحيث تتلافى نقص اللياقة، في سلوك الإنسان، فهي تقتل الأشياء عن بُعد، ولو أنك أطلقت النار على بطة، من مدى قريب، بواحدة من تلك الآلات النارية؛ سوف تمزقها إربًا، مما يؤدي

لمزيد من الفوضى، أكثر مما تُحدثه الفضلات، غير إن الأولى؛ أصعب عند تنظيفها...فيما بعد؛ قاموا بخلط الطعام مع مواد مانعة للحمل شائعة. وحينما نتطلع حولنا للمدينة هذه الأيام، نجد أنه من العار أنهم لم يخلطوا قطع البطاطس كذلك. هناك قضية أخرى ضد البطات هذه، وربما يقول بعضهم عنها إنها بسيطة، هي أن المزرعة التي جمع فيها البط، بوصفها منطقة للعبور، تقع على تل منخفض، يطل على الخليج، دائمًا ما تكون ملوثة بآثار النفاثات المقاتلة، فالأمريكيون وأناس كُثُر آخرون، يأتون لممارسة الطيران هنا، وعندما يقومون بذلك، يبدو الأمر كما لو أنهم يمزقون رتق السماء، وأحيانًا ما يكونون على مستوى منخفض؛ حتى إنك تكاد أن تلمسهم، وتستطيع -دائمًا- أن تتعرف على وجود مشكلات لديهم؛ لأنهم يطيرون بصورة قاسية وصعبة، وفي الليل؛ يمكنك سماع الأزيز الضخم لطائرات الهركيولز، وهي تُطيّرُ الأشياء، وتنثرها بعيدًا. وعندما تمضي النفاثات على ارتفاع منخفض، في موسم الحَمْل لدى الأبقار؛ تُسقط بعض هذه الأبقار حملها أحيانًا، ويأتي العجل الوليد ميتًا، وغير مكتمل، وإذا طالبت بتعويض، سيسألونك عن رقم الطائرة، والوقت الذي مرت فيه فوق البقرة بالضبط. عمومًا، النفاثات تطير بسرعة، تتجاوز ثلاثة أضعاف سرعة الصوت.

اخترقت إحدى البطات النافذة الأمامية لإحدى الطائرات، وطحنت نفسها داخل قُمرة الطيار؛ فانقذف كابتن الطائرة إلى الخارج، وقام مساعده "الملاح" بقيادتها؛ حتى هبط بها في آمان، على بُعد ميلين تقريبًا نحو الشمال، وقد تناثرت قطع من قمرة الطائرة، على عدة أميال حول التلال، ولم تصب أحدًا بأذى، وجاء فريق من المحققين المختصين بحوادث الاصطدام، ومرة أخرى كانت هي البطات...أعطى ظهر النقلة - الحمولة- للبِرْكة؛ فندّ عنها صوتٌ، مثل الصوت الذي كان يؤديه، عندما

كان يُمثل دور عربة النقل في طفولته، والأقفاص ثقيلة، ممتلئة بالبط، والرائحة عفنة، رائحة تشبه أمعاء سمكة، تُطهى في بطء، خلف العربة الفان، فقام بإنزال الأقفاص؛ واحدًا تلو الآخر، على حافة البِركة، ثم قطع أربطة الأقفاص، بخنجر وجده في العربة، وأطلق سراح البطات، التي لم تكن تعرف ما هي البِرْكة بعد. خطت البطات في الماء واحدة وراء الأخرى، مضطربات مرتجفات، ففي الأقفاص تكدست داخلها، وتزاحمت فوق نفسها؛ حتى لتشم منها الرائحة البشعة، لقطيع من الحيوانات. وعندما خرجت جميعها إلى الماء؛ كانت مرتبكة، ثم بدأت تتضارب قليلاً، وشعرت بأنفسها تنزلق، وبوزنها الثقيل هواء، هنا اشرأبت أعناقها، وتمددت ورفرف بعضها بجناحيه، ثم تحولت جميعها إلى بطات طبيعية، شئ حقيقي، إنها مرتهن الأولى في الماء. يراقبها عن كثب، توجد فراشات العذراء، وفراشات البترفلايز، رقيقة كالنار، تطير في كل مكان حول البِركة، في حين تصطدم الزنابير بالحشرات الأصغر منها في الهواء وهي تطير، وتزدهر نباتات البوص، بأعرافها الغريبة، وعلى الجزيرة ووسط البركة؛ بدأت أشجار الصفصاف، في إخراج بذورها، وكذلك نباتات الشوك القرمزية. من الآن فصاعدًا؛ سوف يجئ هنا في المساء، أحيانًا مع والده، ومهما حدث طوال اليوم؛ فإنه سوف ينتهي على خير. ولسوف يحاول - مع والده- عدّ البطات بلا فائدة. وسوف يشاهد تغيّر الضوء، والضوء الأبيض للبحيرة، وهو يغرق داخل الماء، والأمسيات سوف يقصر مداها، وتتحول الزهور، إلى بذور خشنة، كما سيتوقف العشب عن النمو، بخلاف ذلك الذي نما كثيرًا في تلك السنة الجافة، وعندئذ -إذا ما سقط المطر- سوف ينبت عيش الغراب، الذي تحب أخته تناوله كثيرًا، لأنها تؤمن بحكايات الجنيات، سوف يأخذون - كالمعتاد - أجولة معهم لجمع ذلك الفطر، الذي لن يؤكل أغلبه، وإنما سوف يحفظ، ويُحمل في أجولة

بلاستيكية. يقوم بحمل أقفاص الخبز، عائدًا إلى العربـة، إنـه مرهـق الآن لدرجة يتفصد معها عرقًا، والجو حار، وكل إنسان يضـايقه الحـر. يـدخل العربة ويُديرها؛ فهو يعشق أنّـات محـرك الـديزل، يضـغط عـلى دواسـة البنزين، ويتأرجح بالعربة بعيدًا عن البِركة، ويفتح الراديو عاليًـا؛ ليقضي على صمت المكان الهادئ، فتثور نبضاته، عـابرة أعصـابه، مرتقيـة خطهـا عبر نخاعه الشوكي، تمتلئ رأسـه مـرة أخـرى، بصـور الصـدور المشـدودة، الأذرع العارية، والتنورات القصيرة، والبشرات البيضاء، ترسـل انعكاسـاتها الزرقاء، تحت أضواء الكسوف، لم يعد صغيرًا الآن، فهو يعرف؛ وعليـه أن يرغب في الذهاب بعيدًا عن المنزل.

شـعر "جاريـث" بالريـاح البـاردة، وبالسرـعة التـي تحـدثها العجلـة الرباعية، وهو يقودها نحو الحقول البعيدة، ويعلم الآن، أنـه إذا لم يجـد البقرة حالاً؛ فإن الأمر سيتحول إلى مشكلة، وقال لنفسه:

"يجب أن أطلب المساعدة من بيل للبحث عنها؛ لأنه يحب ذلك".

لقد زار البنـك أمـس، ووافقـوا -هنـاك- عـلى مبـدأ أن يقـدم العطـاء للسبعة أفدنة

من الأرض، التي تجاور الطريق، قريبة من مقدمة حقله، وبجوار هذا الحقل؛ سيقام مزاد الأسبوع القادم، وذلك ما احتل تفكير "جاريث" كثيرًا. كان ذلك على الجانب الآخر من الطريق المواجهة لأرضه، ويمتد في شريطٍ طويل، عمقه حوالي فدان، حيث يتسع الطريق تمامًا، بالقرب من القرية، ورغب فيها كي يبني عليها، أو -على الأقـل- يريـد أن يبيعهـا مُقسـمة إلى عدة قطع، ويدرك أن ذلك لن يتم بسرعة، وملأه الأمل بألاّ تكون الفكرة، قد راودت آخرين؛ وإلا فسوف يجد عطاءات مقدمة، أكـبر مـما سـيقدم هو، لكنه إن استطاع الحصول على الأرض، ومن ثم تخطيطها وتقسـيمها؛ فإنه سيجني - مـن وراء ذلـك - ثـروة كبـيرة. فـإن القريـة سـوف تنمـو،

ويدرك جيدًا أنه لن يقوى -جُسمانيًّا- على الاستمرار في الزراعة للأبد. من بعيد؛ سمع البطات تنزل إلى الماء، وراوده فكره:

"لو أني أستطيع أن أحصل على هذه الأرض، عندما تمتد القرية في ذلك الاتجاه؛ سوف أتقدم للحصول على تخطيط عمراني لأرضي".

لقد وضعوا بالفعل حدودًا للسرعة كعادتهم؛ قبل أن يسمحوا ببناء مساكن، رغم أنهم لا يصرحون بهذا. يأخذه التفكير:

"وأنا أستطيع الحصول على تقسيم تخطيطي، وأن أبيع تلك التقسيمات، وفي خلال سنوات قليلة؛ سيمكنني تأجير الحقول البعيدة، وبعض الأراضي، وأن أحتفظ بالمزرعة، مثل جزيرة وسط باقي الأراضي، دونما حاجة لأن أعمل مطلقًا، لأنني لن أكون قادرًا -وقتها- على ذلك، وتقسيم الأراضي سوف يدر علينا نقودًا، فقط لو أستطيع الحصول على تلك الأرض"،

وتمنى بشدة أن يكفيه الاتفاق مع البنك مؤنة ذلك الحلم. أخذ يفكر في مذكرات والده، التي يقرأها ليلاً؛ لتساعده على النوم، وعلى جلب أصواتٍ ما، وسط هذا السكون، ويتساءل كم هو صعب وبطئ؛ أن نفهم أحيانًا، و كيف للقواميس ألاّ تحتوي على الكلمات التي لا يعرفها، وكيف له أن يصل ما بين المعاني هنا و هناك، كما لو كان يسير فوق الأحجار، نحو مصب النهر، وهو يفضل أن يسميها ذكريات؛ لأن المذكرات تبدو عظيمةٌ جدًا، و مزيفةٌ جدًا في آن. يفكر في أراضى البناء؛ وهو يمسح حاجبه بكم قميصه المطوي، وفي كيفية اعتياد والده، لعمله في البنك، الذي قام بالاقتراض منه، مع أن البنك قد أصبح عالميًّا، وكيف -من خلال قراءته لمذكرات أبيه- بدأ يفهم أسباب زهد والده في كل شئ -كالوظيفة الجيدة تلك- من أجل إحضار أسرته هنا؛ لتنشئتهم فوق الأرض

الطبيعية، وليس من الطبيعي هنا؛ تحت هذه الشمس أن تبدو الأشياء مُرهقة هكذا.

تذكر قصة، قرأها ليلة ما منذ زمن، مختلفة في جوها المتناقض عن هذا الحر المنتشر الآن، متألقة في اختلافها، اختلاف مع كل شئ آخر، يدور في ذهنه، إذ تبرز باعتبارها صورة واضحة، مثل الصورة الفوتوغرافية، داخل غرفة بيضاء.

المَلاكُ

لقد عرف المكان؛ من زيارات لأسرة أبيه، منذ عدة سنوات -حتى اليوم- حيث يجري النهر، تحت ما اعتادوا أن يكون جسرًا حجريًّا منخفضًا جميلاً؛ قبل إعادة بنائه بلا سبب واضح، ويوجد في الجانب العلوي من الجسر -أعلى النهر- بِركة ثابتة، حفرت لنفسها في أعماق الطين الصخري، وشلال الماء، عادة ما يكون هادئًا؛ ما لم تأت الأمطار بكميات غزيرة، تنساب من الحقول باتجاه النهر، كيما تزداد المياه ارتفاعًا، وهي تسقط أربعة أقدام – أو نحو ذلك- في البِركة، أما في الجانب الآخر من الجسر، فإن المياه تجري بعيدًا.

فوق هضبة مكسورة غير عميقة. كان أبوه مع بقية الأطفال - يدرسون- في مدرسة الأحد "يا سجول سول"، في حجرة صغيرة بجوار الكنيسة، وكان بها سبورة، ومدفأة غازية من الماركات الجديدة، تنفث هسيسًا رقيقًا، وهو الصوت الذي سيمنح والده -منذ ذلك الحين- شعورًا كافيًّا ووهميًّا بالدفء، وكان ذلك في أحد شهور يناير القاسية، وكانت فصول الشتاء -في ذلك الوقت- شديدة الصعوبة، أو أن ذاكرة والده، هي التي زادت من قسوتها، كانوا حينها يرتدون السراويل القصيرة؛ بالطبع كان والده، من أكبر الأطفال سنًّا هناك. جاء "تومي فولش" متأخرًا، وهو صبي في السادسة من عمره، قائلاً: "لقد رأيت ملاكًا عند الشلال"، قالها

مثل صبي يدخل لعبة مدرسية، وكلما كان "تومي" يتحدث -كما يتذكر والده- بدا كأنه يتلو إنشادًا؛ الأمر الذي منحه شعورًا بالسعادة، وذلك كما يتخيله "جاريث"؛ وهو يقرأ تلك المذكرات، ليشبه أولئك الأطفال المأساويين في الأفلام، الذين يُلقون أبياتًا من الشعر بتأثرٍ صاعق وإن بالمصادفة. لقد قال

: "إنني رأيت ملاكًا عند شلال الماء...".

كان مُقدرًا لـ "تومي"؛ أن يرى ملاكًا مرة ثانية لاحقًا، عندما سقط في حفرة، ناتجة عن انفجار قنبلة ذات مساء، في أخريات أيام الحرب، وهو في نزعه الأخير، غير آبهٍ بآلام جُرحه، الذي نتج عن فصل ذراعه عن جسده. مر به رجل، بظهره شريحتان، على شكل جَناحين من المعدن المتوهج لدرجة البياض -هنا قال تومي: "ملاك"، قالها وهو في نزعه الأخير.

كان طفلاً رقيقًا و مرتعدًا، ويبدو كالمنوم مغناطيسيًّا، يقف متحدثًا في سرعة، يقبض ويبسط راحتيه؛ وهو يخبر واعظه: "تيجلا دافيس" ما رآه، وقد أنصت الواعظ له في هدوء، وكتب والده عنه، أنه يبدو عليه دائمًا الإنصات، لصوت يأتي من بعيد، إذ كان هناك أحد عشر صبيًّا بالمدرسة ذلك اليوم، وأنه لن ينسى أحد منهم أبدًا؛ ما هم بصدد مشاهدته ساعتها. كان هناك صقيع زاخم؛ إلا إن الواعظ أخذهم معه، لرؤية ذلك الملاك، كان الواعظ رجلاً ذا صوت رقيق نقي، وجاذبية حازمة، أمدته بسيطرة -دون جهد- على الأطفال؛ فكانوا هادئين أثناء سيرهم.

لم تكن هناك أية إهانة مقصودة لتومي؛ عندما أخذهم الواعظ لرؤية شئ، كان من المحتمل ألا يتواجد أصلاً هناك. ولم يكن يريد -لبرهة- أن يبدو الصبي أحمق، أمام الآخرين، وبوضوح كان والد "جاريث" يتأمل الموقف، معتقدًا أن الواعظ ربما كان يُعِد الموقف لإبراز

درس ما، درس تعليمي على ما يبدو، وكيف أن الله يُعلن عن نفسه بطرق متعددة، وكيف تقوم الملائكة بزيارات العقول النقية -ربما- بصورة كافية، حتى في بهاء المياه، وكان ناجحًا في قيادة الأولاد للإيمان بالله، ليس بإجبارهم على الإيمان، وإنما بإتاحة الفرصة لهم لمشاهدة الأشياء التي يستحيل معها عدم الإيمان، ولأول مرة في حياتهم؛ يشعرون بما يشعر به الكبار من مشاعر مثيرة. عندما وصل الواعظ إلى الجسر؛ توقف، وتشبث بالحائط الصخري الأزرق، كان يرتعد؛ فالتف الأولاد حوله، وكانت مشاهد الفوران الرقيق للنهر أسفلهم، والصوت الهابط لذوبان الجليد، حيثما تغرب الشمس بضآلة فوق البَرَد، الذي يغطي الأعشاب، بينما تجتاح الواعظ رعشة قوية، كانت هذه الصور، هي التي يتذكرها الوالد أكثر من غيرها، وكان الشلال متجمدًا، وهناك وسط الثلج، حيث يبدأ سقوط الشلال؛ توجد فتاة تمسك بالضوء، مثل خيوط العنكبوت، وشالها يلتف فوق كتفيها، وسط الماء المتجمد. مرت سنوات على هذه الواقعة؛ قبل أن يعرف الناس أن هذه الفتاة، قد انتحرت غرقًا، لأنها كانت ذات حمل، وظلوا يتحدثون عن ذلك في قرية والده إلى يومنا هذا. وبقيت تلك القصة، شاخصة في ذهن "جاريث"، لقد رأى أشياء كثيرة تموت، لكن لا أحد منها مات ميتة جميلة كهذه. ترك دراجته في مقدمة الحارة، ومشى نحو الحقل الممتد، الذي يحيط بالتل، وكانوا يسمون هذا الحقل حقل القمة، وبأعلى الطريق؛ كانت توجد الأرض التي أرادها، وكان صوت جرار"بيل"، يَهدرُ في الجوار القريب.

بيل

كان "بيل" يسكن في المزرعة المجاورة، وقد كَبُرَ مع "جاريث"، وكانت له أخت رائعة الجمال، في حين ترى "بيل" شديد البساطة، وعندما مات

والد "بيل"؛ كان عليهم مغادرة المزرعة، لأنهم اكتشفوا أن المزرعة ليست مملوكة للأسرة، ولم تكن تخصهم لسنوات طويلة، و لم يفهم "بيل" ذلك. كان والد "بيل"، قد استثمر مالاً كثيراً، في تربية الخنازير، واقترض من البنك؛ لبناء حظائر لها، ومسلخ لذبح وتمليح لحومها، وهو عمل شديد القسوة، ويختلف -تمامًا- عن تربية ورعي الماشية والأغنام، التي قام ببيعها، ولكن بدا حينئذٍ؛ أن الأموال المستثمرة في سبيلها سوف تجني عائدها.

كانوا يحتفظون -لفترة طويلة- بخنزير واحد، ثم يقومون بتغذيته، وتسمينه، ثم يذبحونه، وبالتدريج تعوّد الأطفال هذه العمليات، وكان رأس الخنزير المذبوح فقط، هو الذي يخيفهم حينما يلاقونه، وعندما يتسللون إلى المخزن البارد، ويفتحون برميل التمليح؛ كانت قطع اللحم الرمادية المملحة، الطافية فوق الماء تزعجهم، وكان والدهم قد قرر تربية قطيع من خنازير ويلز، وهو نوع من الخنازير القوية الطويلة، ذات الآذان الممتدة، ذات فكوك واسعة، قام بحمايتها بصرامة، من هجوم الخنازير المحلية، التي جاءت من السويد، حوالي عام ١٩٥٠م، والتي كانت -للصالح العام- استثمارًا جيدًا أن تبدأ بتربيتها في رأسماله، وكان يرى الخنازير في الخلاء، وقد امتلأت حقوله، بأقواس حديدية، مجهزة لتربية الخنازير، التي قال عنها والد "جاريث":

إنها تذكره بأكواخ شركة نيسان، وهناجر الطائرات.

وهذه الصورة أعجبت "جاريث"، وكأنها لسرية من الخنازير الطائرة. حتى عندما ازدهرت عمليات تربية الخنازير الويلزية، لفترة من الخمسينيات، وشجعت المُربين على إنتاج نسل نقي الدم، والسلالة كالتي يربيها والد "بيل"، رغم المشاكل المتراكمة لرعاية عدد كافٍ من الذكور والإناث، مع تجنب قيامهم بالتكاثر - بغرض التسمين- فقد أصبح

الأمـر أكـثر صـعوبة، إذ كي يحـافظ عـلى تلـك المجموعـات نقيـة الـدم والسلالة؛ كان عليه اسـتيراد مخـزون مـن عـدة مصـادر، مـما كـان يُعـد مخاطرة كبيرة، وبالتدريج كان عدد الخنازير يتناقص -دون شك؛ فاقترض أكثر وأكـثر، في نفـس الوقـت الـذي كـان فيـه إنتـاج الخنـازير منخفضـة الجودة يتزايد بقوة -وهو الأمر الذي كان يقاومه بشدة- مما أدى لانهيار السوق، وانحدرت خطوط تربية قطعان الخنازير الويلزية، مـع انخفـاض نسبة ربحيتها.

أمّا القطعان التي نتجت عن التهجين -ازدواج السلالة- فقـد قاومـت بثبـات، إذ أدت عمليـة تنميـة جـودة أجسـام القطيـع، وتطـوير كفـاءة الإنتاج؛ إلى تحسين السلالة، التي نتجت عن التهجـين، وأصـبحت مجديـة اقتصاديًّا، ومؤثرة سلبًا على أعمال والد "بيل"، الذي لم يقم أبدًا بعمليات التهجين -ولو بمستوى أحد الهواة، ومع الوقت، ارتدت عليه دعوته لنقـاء السلالة؛ بظهور خنازير وليدة سخلات، ذات عيوب خِلْقِية، أخـذت كلهـا أسـماء سـاخرة، مثـل أم رجـل معووجـة، وأم ديـل ملفـوف، وأم مـؤخرة عمياء، وكلها تعود إلى انحراف جنسي للسلالة، ووسط حالة اليـأس، عـام ١٩٥٧م؛ أُنتج قطيـعٌ مـن ذكـور الخنـازير المُربـاة محليًّـا، والمجلوبـة مـن الخارج، ولسخرية القدر؛ كان أصـلها مـن الـدانمارك، بـدلاً مـن أن تكـون سويدية؛ لأن الأصول السويدية، سرعان ما سببت مشكلات عظيمة خارج البلاد، ومنها: كندا.

فإن الخنازير المولودة انتشرت عـلى جلودهـا تشـققات داميـة، ولهـا حوافر مُتكسرة، وتمـوت بسـهولة مـن نـزلات الـبرد، واسـتغرق تشـخيص أمراضها وقتًا من الطبيب البيطري - المتخصص أصـلاً في الأبقـار- ليحـدد أنه مرض: التكاثر الفطري الجلـدي، وكـان كـل واحـد في القريـة، متأكـدًا تمامًا أن الجينة القاتلة الكامنة المسئولة عن ذلك؛ تسترخي داخل أجسام

الخنازير الدانمركية. لقد صمد خلال هذه الفترة كثيرًا، لكن مع سنوات قليلة تالية؛ بدأت الخنازير في الموت.

شخصوا مرض الخنازير هذا -وهو ما أطلقوا عليه اسم ماسات الخنازير- بأن الجراثيم التي تسببه؛ يمكنها أن تعيش في حظائر الخنازير المريضة، وفي الأراضي التي عاشت بها لسنوات طويلة، ومن هنا استنتجوا أن الخنازير التي دخلت البلاد؛ هي التي جلبت هذا الوباء، وفي إحدى أطوار هذا المرض، يتحول لون جلد الخنزير؛ إلى مناطق قرمزية غير مستوية، تبدو - من الوهلة الأولى- وكأنها مرض: الالتهاب الجلدي، ومن هنا لا يُعالج بصورة سليمة، وتمتد تلك المناطق القرمزية إلى ظهر الخنزير؛ ثم إلى جانبي الجسم، وبعدها إلى البطن، حيث تبدو كقطع الماس تقريبًا، ومن هنا أخذ المرض هذه التسمية، وفي المرحلة المتقدمة المُزمنة من المرض؛ تتأثر مفاصل الخنزير، مسببة حالة من العرج، أو تقوم الجراثيم بمهاجمة صمامات القلب؛ مسببة الأورام الزهرية فيها؛ حتى تصيبها بالفشل، ويموت الخنزير، وكان الطبيب البيطري ينظر إلى القلوب الميتة، ويكتب تشخيصه الخاطئ لفترة طويلة.

أصبحت الخنازير مُكتئبة، وضعيفة، ثم انهارت، سوف تموت خلال يوم، أو تموت فجأة، لقد كان ذلك -حقًّا- أشبه بمرض مولبيري القلبي، وقد أكد الطبيب البيطري المساعد؛ كل ذلك عندما قام بتشريح أكباد، وقلوب الخنازير المتورمة المُبقعة، مختلطة بالنزيف الدموي. تمت تصفية القطيع، وبيع اللحم الصالح منه، وسلم والد "بيل" كل ما يملكه من مال للبنك، وبعد سنوات قليلة أطلق على نفسه النار.

قبل أن يحدث ذلك؛ قامت مزرعة أخرى بشراء المكان وتقسيمه، واستخدموا جُزءًا كبيرًا من الأرض لأنفسهم، وتركوا الأسرة تقيم بالمنزل

على سبيل الإيجار، كما تركوا أبقار المزرعة، على جزء من الأرض، ولم تعلم الأسرة أن الأرض لم تعد ملكها، إذ أبقى والدهم هذا الأمر سرًّا.

حين مات الأب؛ لم يستطيعوا إدارة المزرعة، بعدها قام المُلاك الجدد ببيعها، وكان على الأسرة؛ أن تنتقل إلى منزل صغير بالقرية، لكن "بيل" لم يستطع أن يتوائم مع الوضع الجديد، إذ كان "جاريث" يجده متجولاً، حول المكان القديم، مذهولاً في الليل، أو في النهار، بين أطلال البيوت، كما كانت عند ذاك الوقت، وحول البيت المُغلقة أبوابه.وهكذا منح والد "جاريث" قطعة أرض لبيل، وقام بتسوير بعض الأفدنة بجوار الطريق، وقال لبيل إنها أرضه الآن، لكنه لم يستطع أن يزرعها؛ لذا أخذ الحملان، التي فقدت أمهاتها، وبدأ يربيها هناك، وكان يساعد في بعض الأعمال، عندما يحتاجون إليه، مثل: موسم جز الصوف، وكان يقطع الحشائش للعجائز بالقرية، أو يستولي على فؤوس الناس، وبعض زروع الكرنب لكن في داخله - وكما يعرف جاريث- كان لا يفهم شيئًا مما يحدث.

لم يتوقع "جاريث" أن يجد البقرة هنا، لكنه احتاج أن يتحقق من ذلك؛ كي يستبعد هذه الفكرة، لأنه كان من السهل عليه أن يبحث هنا، ولو كانت غير موجودة ؛ فعليه عند ذاك أن يفتش في الأرض السبخة بالمستنقع، ولم يرغب في فكرة أن تكون البقرة في الأرض السبخة، وتمنى أن يجدها هنا، لكنه يعلم أنه لن يجدها.

وأراد أن يجدها قبل أن يحضر الطبيب لفحص الكلب كيرلي، ولأنه موجود الآن في الحقول البعيدة؛ يستطيع أن يسمع صوت العربات القادمة، ويعلم إذا ما كان الطبيب قادمًا أم لا في نهاية الحارة؛ لأنه يعرف صوت عربة الطبيب الفان القديمة؛ فعندئذ سيأخذ دراجته متأهبًا للعودة، ويعرف كذلك أنها - أي البقرة - سيكون لها عجلٌ ما بطريقة أو بأخرى، ولم يقلق بشأن البقرة -في قرارة نفسه- لكنه كان أكثر قلقًا، بشأن

الحالة التي ستكون عليها "كيت"، وما يمكن أن يحدث لو لم يجدها، ويعلم أنه كان يتطلع إلى بداية الحقول، في حالة ما جاء الطبيب، كما يعرف - في داخله - أن البقرة لن تكون هنا، وأن عليه أن يبحث عنها في المستنقع.

إنه يرقد مستيقظًا الآن -لأن الوقت مازال ليلاً- وأعرف أنه يفكر في البوابات غير المُعلّقة جيدًا، وفي الحشائش الميتة، ولربما يفكر -كذلك- في جسدي، وكم أصبح بدينًا، وفي الليالي الأخرى: يقرأ...ويقرأ ويقرأ، وعلى ضوء المصباح، ينظر إلى مذكرات أبيه، التي ليست بمذكرات، وإنما مجموعة من الأشياء التي يتذكرها. أظن أن ذلك كان صعبًا عليه، أن يقرأ تلك المذكرات، أو الذكريات التي خطتها يدُ الرجل الكبير، إذ كان عليه أن يفك شفرة هذه الخطوط، وأحيانًا مفردات اللهجة الويلزية؛ لأنها لغة صعبة -غالبًا- حتى بالنسبة لمن يتكلمها، رغم أن لديه قاموس مدرسة ديلان القديمة بجوار سريره، وأستطيع أن أسمعه يتحسس بحثًا عن معاني الكلمات، كما لو كنت راقدة بجواره، عندما ظن أني نائمة...

الفَصْلُ الرَّابِــعُ

عَــامِلُ المَزْرَعَة

عقب إجهاضها الأول؛ لم تكن بخير، وكـان الأمـر غريبًـا؛ لأن "ديـلان"، الذي كان جنينًا؛ قد بدأ حياته بقوة، ونما مكتملاً ومتحركًا بصورة سليمة، داخل بطنها، ولم تكن تشكو من أية أمراض؛ قبل مجيئه، مثـل كثـير مـن النساء، كما لو كان جسدهن، ينظـف نفسـه بـإطلاق الفضلات المهملـة داخلهن، طوال عشر سنوات أو ما يقرب من ذلك، حتـى يبـدأ جسـدهن منتعشًا وخَصبًا؛ لكي يقدم طفلاً سليمًا، له جسـد ناشـئ نظيـف، عندئـذ بادئتها نوبات الصرع، كانت النوبات نادرة، لكنها كانـت قاسـية. حـاولوا الحصول على أخٍ، أو أخت لابنهما، واستمرا في المحاولة ببساطة -في مبـدأ الأمر- ثم بإلحاحٍ آخذٍ في التزايد، وقد أُجهضت مرتين، وفي الثالثة أخبروها بأنها لن تتمكن من الإنجاب، كانت في الرابعة والثلاثين، رطبة كالخريف، ليسـت مبتلـة كالنسـوة الصـغار، كانـت كـالربيع، ربيـع رطـب، خَصـب ومُنبت. ولم يكن يبدو صحيحًا تمامًا، أنهـا لـن تحمـل بعـد ذلـك، كانـت ولودًا ونهمة، مثـل أوراق الشـجر المتسـاقطة. وعنـدما اسـتأجرتْ عـاملاً زراعيًّا؛ كانت في حالة غضب وتسلط، وكان "جاريث"بعيـدًا عـن المزرعـة

ذلك اليوم. كان عامل المزرعة أصغر منها،وذا عينين زرقاوين، ممتلئ ريان البدن. قبَّله "جاريث"؛ لأنه بعد الإجهاض، قد ازدادت نوبات صرعها. تساءل "جاريث" عما إذا كان ذلك يحدث؛ بسبب أنها لا تستطيع أداء أعمالها، كانت تحب زوجها كثيراً؛ لكنها كانت تعيش في الظل، وكان عامل المزرعة موجودًا هناك. عندما لمسها قبلته بقوة، واندفعت بين ذراعيه، وعندما مزقت صدريتها، حتى يرى ثدييها مكتملين؛ نظر إليهما مسكونًا وخائفًا مما كان قد بدأه، فأخذته بين ذراعيها، وخلعت ملابسها، وتركته يقودها خلف إطار ذلك الجرار المتهالك، وعندما تم كل شئ؛ شعرت بالغثيان، أما هو فقد جلس إلى المنضدة مذهولاً؛ فسحبت ملابسها، وحذاءها طويل الرقبة، وهُرعت عارية القدمين، تبكي عبر الفناء نحو المنزل. وفي الحمام أخذت تتقيأ مرات، ومرات، وقد جرحت نفسها - لأول مرة - حيث وجدها "جاريث" راقدة تحت الدش، مع جرحٍ ممتد فوق ذراعها، وقد بدأت تتجمد الدماء عليه، ولم تستطع أن تبدأ معه الكلام. مر عامان؛ قبل أن تتعافى من جديد، لكنها مازالت تشعر بالغثيان؛ كلما تذكرت ما فعلته، وتملكها الشك المؤلم أحيانًا، ولم تعد الأمور إلى ما كانت عليه مطلقًا بينهما، أما هو؛ فقد ألقى اللوم على واقعة إجهاضها.

إيمي

كان من الصعب تربية "إيمي"؛ في الوقت الذي وقعت فيه "كيت" مريضة، كان قد أخرجها من أسفل الدش، ونظف جرحها، وقاما بممارسة الحب بنعومة شديدة؛ بعدما انخرطا في معًا البكاء، وقصت "كيت" شعرها؛ حتى أصبح قصيرًا وحادًّا، لكنها مازالت تتكلم قليلاً، وعندما حدث الحمل بعد أشهر من الخطر، أضحى "جاريث" سعيدًا، وولدت "إيمي" في الربيع.

المَاْء

اختصر "جاريث" الطريق عبر الحقول الواسعة، وهو يعلم أن البقرة لن تكون هناك، وعبر أسوار النباتات؛ حيث توجد الشقوق المتسعة الجافة، ويستطيع عند الضفة الجافة، أن يرى الفتحات، التي قامت بحفرها حيوانات ابن عُرس، والمدَق، الذي بسطوه بأقدامهم، ويمكنك أن تجد وسط أشجار الشوك السوداء، أو هنا وهناك حول السور، شُعيرات رمادية جافة، يتداخل فيها الأبيض بالأسود، لو دققت النظرَ. ويمكنك - أيضًا - رؤية خط آثار القش، والأعواد الجافة، التي سرقوها من مَزاود البقر والأغنام؛ لصناعة أسّرة نومهم، التي يحتفظون بها نظيفة بعناية، أو ترى قطعًا من السرخس الأحمر - فإن هناك شجرة منها يعرفها جيدًا- وهي قديمة، حيث تذهب بنات عُرس هذي إليها؛ لتنظيف مخالبها وشَحذها؛ لتظل حادة، وتَلُم القطع المتناثرة من السرخس، مع بعض الطين الجاف على لحاء الشجرة، وكان كتومًا لسرِ أماكن وجود هذه الحيوانات؛ حتى لو كان نقلها المرض لماشيته وأرضه، أمرًا محتملاً. في الحقل الثالث، القريب من محل إقامة "بيل"، يوجد شريط واسع من الحشائش الخضراء اللامعة، التي توازي مجرى مائيًا جوفيًا، يصل حتى مصب النهر، هناك ينابيع ممتازة كثيرة، توجد على أرضه، فإنه لمحظوظ، رغم إنها قليلة هذا العام؛ إلاّ أنه يدفع ضريبة كل عام، للمياه التي يجلبها من أرضه الخاصة، حيث تغمر الأودية الممتلئة بالمزارع والقرى مرة؛ لتمنح المدن مياه ترويها.

رَاشِيل

يرى "بيل"؛ وهو يصعد فوق الجرار الـ "فوردسون" القديم، وحّيا كلٌ منهما الآخر، ولو نظرت إليه الآن، تراه بائسًا، وقد نحل جسده؛ لدرجة

أنك تراه متماسكًا بواسطة ملابسه، وعند أرضه،وبين فوضى التعريشات الممتلئة بأدواته، تشعر -أحيانًا- بأنه يمكن أن يذوب في الهواء الصافي، مثل العديد من أوراق الشجر الزاوية، ومن الغريب بالنسبة لجاريث، أن يفكر في أنه قد رأى هذا الرجل، في أغلب سِنِيّ عمره؛ كثُرتْ أم قلتْ، إلا إنه لم ير أخته لسنوات طويلة، كانت: صغيرة، وبديعة. وفي سن السادسة عشرة؛ عندما انتحر والدها بالرصاص، ولم تكن تحب أمها، التي لم تستطع تحمل نموها السريع؛ فغادرت المنزل لتصبح مضيفة في الطيران، وبدا الأمر، كما لو كانت تريد أن تثبت خطأ الأشياء كلها: تأثير الأرض على الناس الذين كبروا هنا، وتأثير المكان بما يحتويه من معانٍ زاخمة. لم يغفر "جاريث" لنفسه - أبدًا- ما حدث، لقد كانت تصغره بعام أو عامين، قام بإنقاذها من مخاطر عديدة مرات -لا يذكر عددها- من القراصنة، والهنود الحمر، والتنينات.

قد كبرت، وهي متوقعة أن تؤخذ إلى مكان بعيد، وذات يوم كانا يختبئان في جرن القش، ولا يذكر مماذا كانا يختفيان؟وكانا غير ناضجين بما يكفي، لإدراك أنهما قد بدءا بالفعل، عمليات الاختباء من العدم، لمجرد أنهما يريدان -فقط- أن يكونا معًا، ويشعران بقلبيهما، وقد تسارع نبضهما، وأمسكا عن التنفس محاولين ألاّ يتبولا خوفًا. كانا فوق قمة كوم القش، وكانت هناك فضلات فأر، وفضلات عصفور بيضاء باهتة، وبعض من الريش، مسلط عليها أعمدة من الضوء القوي، تتسرب من الألواح المكسورة للجرن، و بدآ يشعران ببعض اللسعات، والحُكاك وسط القش بسرور طفلي، كانت ترقد بجواره، مرتدية رداءًا أزرق، كانت تلبسه طوال الصيف، وإذا ما اتسخ، كان يجب غسله؛ كيما تتمكن من ارتدائه في اليوم التالي مباشرة.و دون أن يعرف سببًا؛ شعر بجسده ينتفض، ورغم أن وجهه تورد خجلاً، وحاول إخفاء ذلك؛ ألاّ أنها رأت عضوه يزداد انتفاضًا؛

فمدت إصبعها، وضغطته؛ حتى أصبح مُحرَجًا بشـدة - حـدث كـل ذلـك فجأة - وكان الأمر مزعجًا؛ فانسل من كومة القش، وفر هاربًا، ولم يحدث شئ بينهما، بعد ذلك.

حَـيَوَانُ الخُـلْد

منذ أربعة أيام؛ وجَـدَتْ "كيـت" خُلـدًا، أحضرته القطـط إلى المطـبخ ميتًا، والقطط لا تأكـل حيوانـات الخُلـد؛ لأن مذاقـه سـيئ جـدًا عنـدها، لكنها أحضرته للمطبخ؛ باعتباره هديةً، كان يدهشـها هـذا المـدى، الـذي تكون عليه حيوانات الخُلد من النظافـة، بفرائهـا القرمـزي، الـذي يمكـن تسويته في أي اتجاه، وقد غضبت جدًّا من القطط ؛ لقيامها بقتل حيـوان جميل وأعمى، لكنها – أي القطط – لا تدرى أنها لو أمسكت بفأر؛ لنالها وعاء من اللبن. قامت "كيت" بقذف جثة الخُلد خلف الجرن ؛ فاكتشـف الذباب وجوده في الحال، وهذه الذبابات الخضراء - التـي تتغـذى عـلى جروح الأغنام- تضع بيضها في هذه الجروح، مثل هذا الوقت مـن العـام، لدرجة تجعل الأغنام؛ في حالة نـوم طـوال الوقـت وضـعت بيضـها هـذه المرة في جثة الخُلد وهي آخذة في التعفن، وجفت مساحات الجلـد عـلى وجهه، ويديه، واستطالت، والتهمته الخنافس؛ ليتحول نصف وجهـه الآن إلى عظام؛ حتى إنك ترى الأسنان واضـحة خلالهـا، وقـد تحللـت العينـان أولاً، وشقت يرقـات خنفسـاء طريقهـا، وسـط اللحـم والأمعـاء، وكـل مـا بداخله، سرعـان مـا ظهـرت فتحـة كبـيرة، في أحـد جـانبي الخُلـد، وظـلَّ الذباب يطن حوله باستمرار، حتى الطيور الصغيرة، أتـت وأخـذت بعضًـا من تلك اليرقات، التي تتغذى على جثة الخُلد؛ لتغذي صـغارها، وأخـذت الفراء؛ لتزين أعشاشها، كما التهمت الخنافس يرقات الذباب، وشقت لها نفقًا أسفل الخُلد، وسحبته إلى أسفل، لمسافة ما، وقد نزعت الجلد؛ حتى إنك لتجد بعضًا من هذا الخُلد تحت الأرض، وبعضه فوقهـا، إذ إنـه كـان

كبيرًا جدًا، مقارنة بالخنافس؛ لكي تلتهمه كله. ووضعت بيضها على مقربة، وقامت بتغذية اليرقات -التي فقست حديثًا- بقطع من لحم الخُلد مهضومة جزئيًا. فيما بعد؛ شقت الخنافس مُدخلاً في الجثة المتعفنة، وعاونت اليرقات، الآخذة في النمو، على الدخول فيها، فلسوف تطعم نفسها، وعندما انتهى أكبر جزء من جسد الخُلد، الذي ذهبت به الحشرات الأكبر؛ جاءت جحافل النمل، تُنظف العظم، والأغشية من اللحم، ملتهمة معها اليرقات الضعيفة، كانت تعمل بنظام جميل، وبطاعة عمياء، كالخُلد نفسه، عمياء؛ حتى تلاشت كل أعضائه معهم في الأرض مرة أخرى، ترى - فقط- بعضًا من العظام المتروكة، بفرض أنك وجدتها الآن.

القِطَطُ

ترى القط، وهو ينسل خُفية عبر المرعى. هذا القط الذي عذبه الأطفال كثيرًا، بإرهابهم المعروف - بوصفها وسيلة للدفاع - تبنى موقفًا هادئًا بورجوازيًا - إلى حد ما- هازئًا بالألم، وكان يتحرق غضبًا؛ حين مزقوا كُراته، وفي تحدٍ واضح لضعفه؛ خطا حول المكان، بخطواته الوئيدة، كنمر جرئ، إنها قدرة طبيعية منذرة بالخطر، أن تبدو كما لو كنت تستطيع أن تُلقي أثقالاً ضخمة إلى الأرض، بلطفٍ شديد؛ بينما استخدمت القطة الأخرى – التي أصرت "إيمي" على تسميتها بسخافة – تكتيكات مختلفة، فإنها و لكونها أنثى كانت جميلة، كدرقة السلحفاة، بعينين دامعتين، ولم يفسد بناؤها الداخلي؛ أي شئ بتركيبة عينيها الجميلتين الطبيعيتين، كانت تحب "جاريث"، وقامت بإغرائه في كل فرصة أتيحت لها، وكانت لعوبًا كأي شئ جميل، كانت هي الصياد. أما القط الآخر، فقد كان يحضر الأشياء الأكبر حجمًا، مثل صغار الأرانب، ومرة أحضر – بصورة ملحوظة – نورسًا، كما لو كان يريد القول: "إنك لو أردت فعل شئ فأنا

أستطيعه.."، لكن تلك الهبات الضئيلة المستمرة من القوارض، والطيور بطيئة الحركة، كانت هي التي تحضرها. كانت هناك قطةثالثة - وهي شقيقة للسابقين- لكنها تاهت؛ إذ إنها كانت ضعيفة منذ البداية، وكما هو متوقع؛ أحبتها "كيت" أكثر من غيرها، لقد تاهت في فترة عمل التبن من القش، ولا يريد أحد أن يصدق، أنها ماتت داخل آلة صناعة التبن هذي؛ لذا قرروا قبول فكرة اختطافها، بواسطة "متنزهي الإجازات"، كما يحدث غالبًا، إلا إن "جاريث" اقتنع بأن كلاب الجيران، قد استولت عليها.

النَّارُ

عاد "جاريث" من نفس الطريق؛ عساه أن يجد البقرة، وقد اقتحمت السور، لكنه يعرف أنها لم تفعل. لا يرى أية علامة تدل على وجودها، ومن السور - وهو يرى المنازل في مخيلته - يجد الرماد الأسود الساكن، المتخلف عن النيران القديمة، إذ تنشب في كل صيف يمر بعض النيران القديمة، في شجيرات الأسوار، حيث يقوم الناس بإلقاء أعقاب السجائر من نوافذ سياراتهم. يلقون سجائرهم؛ ويمضون في قيادتهم، تاركين ألسنة اللهب تتراقص، وتبدأ في التهام الأعشاب الجافة للضفة، وتحولها إلى سور نباتي هش، لكنها لم تدمر شيئًا هذا العام. ويتساءل إذا ما كان الطبيب البيطري سيأتي أم لا، وقد أصبح الكلب كيرلي هرمًا جدًا، وهو يملكه مذ كان جروًا صغيراً. عندما كانت "إيمي" صغيرة؛ اعتادت أن تجر الكلب حولها من أذنه، كما لو كانت تستعين به؛ لمساعدتها على المشي- كانوا يتندرون بأن الكلب، هو الذي علمها المشي- لا هم. والآن أضحى هرمًا جدًا، ولا يستطيع - حتى- تنظيف نفسه، ونما في جانبه ورمٌ مؤلمٌ، في حجم نصف كرة القدم، بالأمس عضه فأر؛ مما يستدعي حضور الطبيب الآن، لقد حان الوقت. يعبر فوق درجات السور، التي تربط بين الممشى-

المار عبر أرضهم – التي تشبه السهم الأخضر الغامض الغريب – وبينما يهبط تلك الدرجات؛ يلتوي كاحله، آلمه ذلك بشدة لمدة يسيرة، وشعر فجأة بالتعب والغضب، إذ لم يستطع التوقف عن التفكير في الكلب، وغالبًا ما كانت الأرض - هنا- محلاً لآثار كل مظاهر العبور، آثار: ثعالب، وقطط، وأحذية، وحوافر غنم تائه، أما الآن فإنه لا يوجد شئ من ذلك، ولا أثر واحد لأي حركة، ترى فقط؛ الأثر العميق لحافر حصان هنا أو هناك، انطبع منذ زمن بعيد، حينما كان الطين رطبًا، وبدأت الحقيقة الساطعة، حول فقدان البقرة، تغضبه بشدة، وهو يتبع الممشى، وأخذت صدمة كاحله تهدأ؛ لتتحول إلى ألم غامض، وعليه أن يكون حذرًا جدًا، في الاستجابة لغضبه، فإنّ غضبه يصبح عنيفًا، عندما يحل عليه.

يمر الممشى بين سورين من الشجيرات، لمسافة قبل أن ينفتح على الأرض البراح، ويتبع صفًّا من أشجار الحسك الأسود، هابطًا إلى النهر، ومنه إلى الشاطئ، الذي مازال الوصول إليه، يستغرق بضعة أميال قادمة، وترى المشهد مذهلاً، والأرض تمتد في رقة من بُعد، والبحر أمامك مباشرة، أزرق ينساب كالحرير على صفوف شجيرات زهور: القندول، المُغرقة في اللون الأصفر، في ذلك الطقس، ووسط تلك الحرارة؛ أحيانًا ما يتضوع من شجيرات القندول، رائحتا: العسل، وجوز الهند، حتى إنه يمكنك سماع صوت براعم البذور، وهي تنفجر تحت ضوء الشمس، في طقطقة حادة؛ ووصلته الرائحة، وهو يسمع صوت البط في الماء من بُعد، وعربة النقل عائدة تشق طريقها – كما خمن – إلى فناء المزرعة، يفكر في ابنه، وهو يتطلع عبر البحر، لم يكن يرغب في العمل بالمزرعة؛ لكنه سيعلم يومًا ما؛ مدى روعة هذا المكان، هنا يرتفع عصفور، طائرًا أمامه – كصوت النفير – صوت ما، يصدر -دومًا- عنهم – مرتين فقط – قبل الصاعقة، لقد فقد شهيته للصيد، فلربما كان في مثل هذه اللحظة يتفقد

حزام بندقيته فوق كتفه، ويتخيل طلقة الصيد، ثم سقوط الطائر:"لو كانت به رغبة !". إنّ جمال هذا الطائر؛ أمرٌ لا يُصدق، ويرى أمامه على مبعدة منه شيئًا ميتًا ومحطمًا، شيئًا غريبًا، وعندما يفحصه يجده أرنب، تهشم جسده تحت ثقل قطع مكسورة من الأسمنت؛ فيحدق ناظرًا إليه؛ وهو يفكر في الكلب، أجوف الشعور للحظة، وبعدها يغضبه بشدة، فكرة أن الناس، قادرين على فعل تلك الشرور المذهلة.

الأَرْنَب

جاء الولدان، ووجدا الأرنب يموت بجوار الضفة، كان النسيم يهب في خفوت، والجو صحو؛ لأن الطقس كان جافًّا لفترة طويلة -ومازال- مُسجى مبللاً كأنه وسادة، أو ككلب منكمش عندما يبتل، وقد ظناه ميتًا في مبدأ الأمر؛ لأنه تكومّ كقطعة من اللحم، لا شكل لها، رآه الصبي راقدًا وسط الحشائش القصيرة، بجوار الضفة، و الفضلات الجافة، والآثار الزاحفة للأرانب الأخرى، وفوقها شجيرات الحسك السوداء الكثيفة المتشابكة، التي يبدو أنها على وشك الإثمار؛ فقال الولد: "ياه.. انظر..". ولم يكن يرغب في أن يرى أخوه الأرنب، لكنه عرف أن الولد الآخر، لابد وأن يراه ؛ لذا فإنه قال هذه العبارة. كان الولد الآخر، يقف بعيدًا عن الأرنب للحظة ؛ ثم اتجه نحوه، وانحنى عليه، ولم يشعر أي منهما بالحزن لحظتها لموت الأرنب، كانت عيناه مفتوحتين، ولكنهما لم يتحركا، وحولهما كان النسيم، يهب في دفء، عبر شجيرات الحسك، يتهادى لسمعهما، صوت تكات جرار،يعمل عبر الحقول.

عندئذ حرك الأرنب إحدى عينيه. وتقدم الفتى الأصغر؛ لينبشه بإصبع قدمه، إذ أراد أن يفهم الأمر بصورة أوضح؛ فلوى وجهه إلى أعلى، حين امتدت قدمه للأمام، تحركت العين ببطء، نصف مغلقة تقريبًا - لا كلها- كما لو كانت ترغب بذاتها- أن تنغلق؛هنا قال الصبي الآخر: "لا

تحركه؛ إنه مازال حيًّا". كان الجرار يزمجر ويدمدم في المدى البعيد؛ أصبح كل منهما - عند ذاك- حزينًا. لكنهما تمنيا ألا يراه ذلك الشخص الآخر؛ فوقفا حوله، وكادا أن يتحركا مبتعدين؛ لكنهما عرفا أن ذلك ليس تصرفًا سليمًا. فقال الصبي الأكبر:"أنا سوف أُنهي حياته"، كان ما قاله بسيطًا وجريئًا. عندما لفظ ذلك ؛ صدر عن الأرنب، حركة ضئيلة بقدمه، لكنه لم يستطع النهوض؛ فتكور حول نفسه، في نصف دائرة، وبدا الأمر؛ كما لو كان الأرنب، يساعد الصبي الأكبر، على تنفيذ ما قاله، وكأنه يحاول إخباره - يائسًا- أن ذلك - أي الموت - هو أفضل شئ يفعله ؛ فعرفا عندئذ، أن عليهما أن يقتلا الأرنب؛ لأنه كان يموت بالفعل، فنظرا حولهما، ووجدا بعض الأحجار القديمة، بجوار أحد الحوائط، هنا التقط الصبي الأصغر أكبر حجر، يمكن له أن يحمله بكلتي يديه، ونظر إلى الولد الأكبر بشجاعة ؛ لأنه تألم عندما شاهد الأرنب يركل بقدميه، كما اضطرب، وكاد أن يفعلها بنفسه.

كان الولد الصغير، يحب أخاه الكبير، ولربما قام بذلك الفعل نيابة عنه ؛ بسبب الطريقة التي نطق بها الولد الكبير، هذه الألفاظ بصورة هادئة، وواضحة، تبين وجوب إراحة الأرنب من عذابه، وعرف أن أخاه الأكبر، شعر بحزن عميق داخله - ربما أكثر منه ألمًا- فقال الصبي الأكبر: "ربما لم يمت بصورة سليمة.. لسوف أحاول فعل ذلك، دون أن أؤذيه، وأُنهي المسألة بسرعة"، وهذا ما جعل الولد الصغير؛ يشعر الغثيان، لما علم أن ليس له أن يقتل الأرنب، إذ أمسك الولد الكبير حجرًا أو حجرين، لم يشعر بأن أياً منها ملائم، وسرعان ما وجد حجرًا مناسبًا بين يديه، رأى أنه يوافق الغرض، كان الحجر دافئًا وأملس في يده، دائمًا ما كان يطلب من أخيه الأصغر، القيام بالأمور التي لم يرغب هو في تنفيذها؛ لكنه هذه المرة لم يفعل.

لذا أدرك الصغير أنهما بصدد عمل كبير ومهم. تلـوى الأرنـب، واتخـذ أسوأ شكل مذ حاول التحرك؛ فركع الولد بالقرب منه، إذ لم يكن يريـد أن يلمس الأرنب بيديه، حيـث قـال: "لا تلمسـه بيـديك؛ فلربمـا يكـون قـد تسمم، ولا نستطيع أن نغسل أيادينا"، أراد أن يلمس الأرنب بيديه؛ حتى يُهدأه، كـي يموت في يسرٍ شديد، لقد سمع عن ذلك المـرض، وكيـف أن أخواله، عندما كانوا صغارًا، يتجولون حول المزرعـة، ويعـودون بحقائـب، مملوءة بالأرانـب، التـي قـاموا بقتلهـا، وكـان علـيهم إحراقهـا، وعلـم أن المرض، مازال متواجدًا، لكن بصورة أقـل سـوءًا. وضـع قدمـه عـلى كتـف الأرنب؛ ليثبته إلى الأرض، حيث يرى وجوب ضربه عند رقبته ؛ فانفتحت عين الأرنب الحزينة العميقة نحوه، وكانت رائعة وصافية، ولم يُبد الصبي أية مشاعر؛ إلا أنه سأل الأرنب -في نفسه - عما إذا كان مـا سـيفعله هـو الصحيح. في حين انغلقت عين الأرنب - نصف إغلاق- ببطء شديد؛ تعبيرًا عن الهزيمة. ضرب الأرنب بحافة الحجر، ضَرَبه بقدر ما يعتقد أنه يمتلـك من قوة؛ لكنه لم يستطيع إرغام نفسه، على قبـول إيـذاء الأرنـب - وهـو شعور كان ضروريًّا لهذه المهمـة- حتـى إن الأرنـب، اهتـز تحـت قدمـه، وتمددت قدماه الخلفيتان، وركلتا الهواء، فضربه ثانية في رقبته. سـبق لـه الضرب فيها، حيث يوجد العديـد مـن العضـلات، وأصـبح فمـه مفتوحًـا الآن، وبانت منه أسنانه الرقيقة، وتطلعت إليه العين سوداء تأتلق خوفًـا، عند ذاك أدرك أنه لابد آذٍ الأرنب، واندفع داخله اضطراب مفـزع بطـئ، وهو يدرك شيئاً مثلَ ذلك، وغرس حافة الحجـر بقـوة في العنـق، ودفعـه للداخل، وأداره محاولاً تحطيم العظام، لقد تمنى كثيرًا أن يمـوت الأرنـب؛ فصدرت عن عظام العنق صوت: تكة، والتمعت العين مرة واحدة؛ فعلم أن الأمر قد انتهى، وأضحى وجه الأرنب الصغير الرقيق، خشـنًا مشـدودًا، وبدت أسنانه حـادة وبيضـاء. كـان الولـد الصـغير، يحمـل حجـرًا ضـخمًا

بكلتي يديه، بجوار وجهه؛ وعندما أدرك من ملامح وجه أخيه، أن كل شئ قد انتهى؛ رمى الحجر بعيدًا، فسقط على الأرض الجافة، بصوت أجوف عميق.

ولم يشعرا بالارتياح لموت الأرنب، لكنه أفضل حالاً، فأخذا بعض حجارة الأسمنت من الحائط المتداعي بجوارهم، وعندما عادا إلى الأرنب، بدا هادئـًا راقدًا في سلام، وشعر الصغير بالأسف لأخيه؛ فنظر إليه ليجده بخير. وأخبره أخوه الأكبر، عن أمر آخر، سيفنى به جسم الأرنب، ومعه يذهب السم كذلك، لذا غطيا جسمه بقطع الأسمنت، ووضع الصغير حجرًا على رأسه، وأراد أن ينصرف بسرعة؛ لأن يده لمست فراءه للحظة قصيرة، ووضع الأكبر الحجارة على باقي جسمه، ولم يجدها متزنة؛ فقلبها كي تتوازن على الجسم الميت، ولما استقرت الحجارة هناك، تحركت القدم الخلفية فجأة عندما ابتعدا؛ لم يخبر الولد الأكبر أخاه الأصغر، بأن قدم الأرنب الخلفية تحركت، وقال في نفسه: إنه كثيرًا ما تتحرك الأعضاء، بعد الموت لفترة بسيطة ؛ لأن الأعصاب تستجيب للحركة لبرهة، خاصة أنه رأى والده يسلخ ثعبان ماء - وبدون رأسه - وقد تلوى جسد الثعبان وانتفض، وكان يتمنى أن يكون قد سبق له العلم، بأن قدم الأرنب الخلفية قد تحركت؛ لأنه علم أن تلك المسألة -أي موضوع الأرنب الذي لم يمت كلية، وربما يكون في حالة احتضار تحت ثقل الأحجار المتراكمة فوقه- هي معرفة خاصة به وحده، وفكر في نفسه: لو كنت لمسته بيدي؛ لكنت عرفت ذلك بالتأكيد، وأدرك عندئذ؛ أن البشر يجب أن يكونوا أقوياء، وهب النسيم قليلاً، وكان الجو جميلاً؛ بينما امتد الجفاف طويلاً طويلاً.. ومازال.

ترك الولدان الممشى، وسارا مسرعين، فوق الحقل الأخضر المنخفض، هنا قام الصغير بحك يده، حيث لمست فراء الأرنب.

الفَصْـلُ الخَـامِسُ

عَجَلَةُ الجَرَّاْرِ

لم تكن "كيت" من المنطقة، ولم تكبر لتكون في مزرعة. عقب عدة سنوات؛ وجدوا أن "جاريث" قد أصابه مرض: الشلاميديا - الذي انتقل إليه من الأغنام- وكان ذلك سببًا في إجهاض "كيت"، وفقدانها لأطفالها - وهذا ما خفف ألمه- فإن المسئولية تقع عليه، وليس فشلاً عائدًا لخصائص جسمها، وقد تمنى ألا تلوم"كيت" نفسها، وكان من المستحيل عندها، أن تقبل فكرة موت أي كائن، وبعد فقدانها أطفالها شعرت بالموت بكل أشكاله. كانت تتفقد الأبقار في الحظيرة، وعلمت -حينذاك- أن إحداها قد فقدت عجلها الوليد، وغضبت بشدة من "جاريث"؛ لأنه لم يخبرها، وقد قام بتنظيف القش الدامي، لكنها عرفت بوجود بقرة

عُشراء، فقدت عجلها؛ لأنها أحصت الموجود مرتين، بعدما رأت البقرة خاوية، وسمعت "ديلان" ينطلق بسيارته. يمكنك أن تسمع صوت الأبقار، وهي تهش الذباب بعيدًا عنها بذيولها، وكانت العجلة القديمة للجرار، ملقاةً في الجرن، كادت تشعر بالتعرجات الحادة للعجلة، تلامس ظهرها؛ عندما رأتها، كادت الشمس تغرب على سطح الجرن المتكسر، والحر شديدٌ داخله، كما لو كان صوبة زراعية، وخارجه تتصايح العصافير، في تكاسلٍ تلتقط حبات القمح، وتتقاتل حولها في حمّام من الغبار الكثيف. لكن "كيت" كانت – بمفردها- غاضبة جدًا. فكر "جاريث" الآن فيها كثيرًا، كان قد أصلحَ طريقًا احتياطيًا جافًا، ووسّعه لدرجةٍ تسمح بمرور جرار داخله، به آثار عميقة، كونه طريقًا، لكن من الصعب السير فيه الآن ؛ مع ما يشعر به من ألم في كاحله. كانت الشمس قد أشرقت فعلاً، وفكر بصوت عال: "يجب ألا أنسى أبدًا كم كان جسدها متكاملاً... إنها تتغير الآن، لكن هذا الأمر لا يهم كثيرًا"، لقد قصد أن يبحث في الحقول البعيدة ببساطة؛ ليتمكن من فحصها جيدًا، وتمنى أن يحضر الطبيب البيطري عندئذ؛ ثم يعود بالدراجة إلى المنزل، وبدا الأمر كما لو أنه في حاجة " شديدة " للسير. شعر بنفسه يفرد كتفيه، ويرفع رأسه عاليًا في مواجهة الاضطراب الناشئ عن فقدان البقرة، والعنف الذي شاهده لمرأى الأرنب الميت، وبدأ يشعر بجسده، يتأهب ليتحدى تلك الأمور، وأخذ يفكر: "إن الأمر ليس بهذه الأهمية، ولسوف تتغير هي". يعلم أن عليه أن يساعدها؛ لتسترد نفسها من جديد، إذ مازال جسده يحتاج إلى جسدها، وإلى تلمس خريطة تكوينها الأليف، وأجزائه التي تمنحه إحساسًا بالنعومة كلما احتضنها، هذا الجسد الذي تغير، وتحول عبر السنين، كما لو كان يجاري التغيرات، التي تحدث لجسده هو؛ ليكونا معًا في تناسق هارموني، وكما لو كان يمثل هو الأرض الجافة، وهي الماء الذي

دائمًا ما يتعرف عليه، وعلى كل؛ فقد تغيّر جسدها، ولم تزل تفصيلاته تشده وتثيره، رغم الحقيقة التي يعرفها، أن كيميائية رجولته، سوف تشتهي - دائمًا - الإغراءات المُحكمة، من السيدات الصغيرات، أو الإثارة الناشئة من بشرة مختلفة – غير تلك التي اعتاد عليها – لكنه يعلم أن أولئك الأخريات، لا يملكن أدنى مهارات إشباعه، وسيكُن يقظات أكثر من اللازم كالغرباء، وسيشغلهن التفكير الزائد، في التلاعب بجسده ؛ كيما يصل معهن إلى ذروة الأحاسيس، التي وصل إليها مع زوجته من قبل، ومن السهل عليه أن يغرق حاجاته البصرية، لرؤية النساء في مشاهدة: المجلات الخاصة بابنه، أو التليفزيون، أو المجلات التي يخبئها - في خجل- لنفسه، وهو مدرك تمامًا أن أيًّا منها، لن يشعره بالمتعة، التي يشعر بها معها، فهو لا يتخيل أن يتماس جسده مع جسد أية فتاة أخرى ـلقد نشآ مُقدرين لبعضهما، وكانت دائمًا وأبدًا معه حتى اعتقد أنها ظله الداخلي. أخذ يفكر في أقدامها العارية، كاملة التكوين، وكيف أنها -بعدما تلاقيا لسنوات- كانت تلقي حذاءها بعيدًا، كلما أتيحت لها الفرصة؛ كي تبقى عارية القدمين، ولما توقفت عن فعل ذلك -فيما يظن- لم يلحظه، لكنه أضفى عليه إحساسًا غريبًا بالذنب. يفكر الآن في قدمي ابنته العاريتين، وفي حذائها الملون، الذي رفضت أن تخلعه، ويتساءل كيف ستكون في المستقبل، ابنته بعينيها الخضراوين الغريبتين؟ وهل ستقع في الحب مثل أمها؟ وبمثل قرارها الحازم، وأخافه ذلك إلى حد ما، ويعلم أن خوفه سيزداد؛ كلما كبرت، بصورة لم يألفها، مع ابنه، ويتمنى ألا يؤذيها يومًا ؛ بسبب خوفه عليها. لكن الخوف نادرًا ما يكون داخل الموضوع. ففي مذكرات والده، تبين كيف فقد أبوه زوجته الأولى، ففقْدُها كان له علاقة كبيرة بتركه البنك، إذ أراد أن يعيش في المزرعة؛ ليشاهد الكائنات وهي تحيا وتنمو أمام عينيه، أما زوجته الثانية، فقد كانت أصغر منها بكثير،

وقد أبدى نحوها عناية كبيرة. كان والده يسوق البقر كل يـوم - بخـلاف الشهور القليلة التي انكسرت فيها رجله- عبر الطريق الصغير، الـذي يمـر بـين مـرعيين، وذات مـرة - وهـو شـيخ في الثمانـين- بيـنما كـان يسـوق البقرات؛ وجد إحدى سيارات الشرطة، تعيد له زوجته الثانيـة، إذ كانـت تقـود العربـة، وسـط القريـة؛ فاصـطدمت بهـا في جانـب عربـة نقـل، مخصصة لتوزيع المنتجات، كانت واقفـة في ركـن السـيارات، ولم تسـتطع استخدام المكابح، إلى أن اخترقت مـؤخرة عربـة النقـل، الزجـاج الأمـامي لسيارتها، وأطاحت بسقفها؛ فأصـبحت كعلبـة مفتوحـة للهـواء. وعنـدما فحصوا عينيها؛ وجدوا أنهـا فقـدت الرؤيـة السـطحية للأشـياء، وأضـحت كمن يعيش في نفق طويل مظلم. فيما بعد - عدة شهور- اكتشفوا ورمًا فوق غدتها النخاميـة؛ فنقلوهـا إلى مستشـفى، عـلى بُعـد أميـال قليلـة، لتموت هناك؛ رغم أنهـم بـذلوا جهـودهم، لإجـراء عمليـة جراحيـة لهـا. كانت تحيا بصورةٍ لا تصدق، رغم أنها كانت تبدو شديدة الضـعف لكـل إنسان. بعد أشهر قليلة تالية؛ أصيب والده بسرطان الحـوض، ومـات في المستشفى بعد ثلاثة أيام فقط، كل ذلك دلّ على أنه عـاش في ألم عميـق لفترة طويلة، ويعرف "جاريث" أنه مات؛ لأنـه لم يتحمـل فكـرة أن يحيـا بعد المرأة الثانية التي أحب.

العَـرَبَةُ

العربة تغفـو، متثاقلـة كأنهـا مبنـى قـديم، إذ يقودونهـا يومًـا بيـوم، ويقومون بركنها، بجوار شجيرات التوت البري العُليـق والحشـائش، وهـو مكان يبدو مستحيلاً لركن سيارة، كـما لـو كانـت قـد هبطـت إليـه مـن السماء. تلك العربة التي ظلت تمثل أشياء كثيرة، مـن أول سـفينة فضـاء، إلى خـزان للسـوائل، وحتـى رأس حيـوان، مازالـت تـومض رغـم اهتـزاز الأضواء، واللمعة البيضاء لمجاريها وحوافهـا، وحتـى بعيـدًا عـن نوافـذها

المتربة، وبسبب الضوء الصادر عنها؛ تبـدو وكأنهـا تتحـرك أحيانًـا. كانـت هناك العديد من القصـص التـي تَـروى: كيـف وصـلت العربـة إلى هـذه المنطقة؟ وإلى هذا المدى داخل حقل أجـرد كهـذا؟ حتـى إن كانـت ذات إطارات جديدة، ذائعة النوع، ومنفوخـة لدرجـة الانفجـار، كـان عبورهـا للأسوار النباتية، سرًّا غامضًا، وفوق الأراضي التـي تملؤهـا المسـتنقعات؛ لم يتذكر "ديلان" أبدًا إطاراتها في صورة غير صورتها، وهي جافة ممزقة، إلى قطع من المطاط، عندما كان يلعب داخلها مثل لحاء يتقشر بسهولة، عن شجرة عجوز، حول صرة جنط العجلات، التي كانت صدئة؛ فتراها تتفتت إلى تراب غريب، وسط صحراء من "رمال". تناثرت هناك قصـة المهـربين، الـذين اختطفـوا أم "جاريـث"، وانطلقـوا بالسـيارة مسرـعين، يتـبعهم مطاردوهم بجنون، حتى أصابتهم طلقات بندقية والـده الهـائج: "وهـي بندقية جيش قديمة"، وبمناسبة القصة؛ كان والده قناصًـا سريًّـا، لا مجـرد طيشـة في الحـرب. كانـت هنـاك قصـة الفيضـان، وكيـف أن كـل الأسرة، اضطرت لدخول العربة يومًا ما - بينما تسقط السـماء أمطارهـا مـدرارًا- للهروب من طوفان مقدس ترك العربـة – بعـدما انخفـض المـاء– وسـط الحقل، وهذا هو سر وجـود المسـتنقعات، وسـط الأرض ولا تزال.وكـذلك تناهت للأسماع قصة البالون، وهي القصة التـي فضـلوها كثـيرًا، بسـبب الصورة المصاحبة لها، وتحكي كيـف صـنع والـد "جاريـث" - وهـو الـذي حكاها بنفسه- بالونًا ضخمًا، وأحكم وثاقـه بالعربـة ؛ وذلـك للسـفر بـه حول مناطق الريف، عاليًا فوق اتساع المـدى، وكلـما روى أحـدهم هـذه الحكاية؛ ترى والد "جاريث"، يقوم بـبعض الحركـات، كمـن يبحـث عـن "الصورة" هنا و هناك في الأدراج؛ حتى يصل لصورة بطاقـة بريديـة، غـير باليـة لمنطـاد زبلـن، مشـيرًا للحاملـة المربوطـة أسـفله، وهـي صـغيرة - بالطبع- ليقول: "ها هـي العربـة هنـاك... أتـرى؟". ولم يكـن يهـم الأولاد

تغير القَصص، إذ كانت كلها متساوية في صـدقها؛ لأن الأولاد كانـت لهـم نظرياتهم على أية حال، وكانت العربة ملعبهم. أما "ديلان"؛ فلم يـذهب للعربة فترة طويلة، لكن السـنوات القادمـة - مـن الآن فصـاعدًا- سـوف يتذكرها، مارًّا بقافلة لشركة موريس للسـفر، في طريقهـا لمسـابقة: جمـع العنب في مكان ما، ومثل كل الذكريات، التي تكمن داخلنـا، بعيـدًا عـن اتقاد وعينا – في الظل – سوف تثور ذكـرى العربـة بعنـف، لـــ: فرشـها الجلـدي الأحمـر في الـداخل، الـــ مبقـع في بعـض الأمـاكن، ولأجزائهـا المتساقطة، ومسّاحات زجاجهـا، التـي تـديرها بيـدك، وواقيـات الشـمس البلاستيكية، وسقفها الملآن بالثقوب، مثل: كيس الشاي، والرائحة الحـادة للعربة، ذات الأرضـية المكسـورة، والشـعور بالالتصـاق بمقاعـدها تحـت الشمس، ونوافذها المفتوحة باستمرار، ولا يهم ما إذا كان يتذكرها بدقـة أم لا، فإن هذه هي جل ذكرياته عنها، والكيفية التي بها؛ ستسـتمر تلـك العربة في الوجود. دفع "جاريث" العربة، إلى حيث اعتاد ابنـه أن يلعـب كثيرًا، وكان عليه أن يعود، ويخبر زوجته أنه يحبهـا، ولبرهـة ضـئيلة يـرى عربته، وكأنها جديدة تمامًا، مثلما كانت في الزمن، الـذي كـانوا يخرجـون للنزهة فيه، مندفعة بين شجيرات التوت البري العُليق، وفي ثوانٍ معدودة تالية؛ يقع بصره على فضلات زبل الفئران، والعناكـب، والـتراب السـميك، الذي يغطي نوافذها الآن. يريد أن يعـود إلى "كيـت"؛ ليجـدها ويخبرهـا ببساطة أنه يريدها، وأنه يرغب في حبها بنفس طهارة الحب الـذي كـان والده يكنه لزوجته، ويعلم أنها ستكون غاضبة جدًّا بشأن مـوت العجـل، الذي ستكون علمت بموضوعه الآن، وأنها تكـره جسـدها؛ للصـورة التـي استحال الآن إليها، لكنهما اجتازا مثل تلك التجربـة مـن قبـل، فإنـه بعـد مولد "ديلان"، عندما تغير شكل جسدها، وتلاشى الإحساس بزهو الحمل؛ كرهت عندئذ جسدها، في حين كانت في عينيه قد صارت أجمل مـن ذي

قبل، وأزعجته قدرتها على الإنجاب؛ رغم أنه قضى حياته، في الانصياع لمتطلبات التناسل، الأشياء التي كانت تكرهها كان يحبها، بالنسبة إليه؛ كانت ملامح جسدها الممتدة، أشبه بقطعة من المخمل القطيفة، وقد سويت خلاف الاتجاه، أو كريحٍ مرت بالحشائش. إنه يريد لها السعادة، وأن تعلم أنه لا يريد إلا أن تكون كما هي، وأن تعود للسير حافية القدمين ثانية. عليهما أن ينسيا أمر البقرة، وشئون الأولاد لفترة، وأن يخلعا حذاءيهما، وينطلقا نحو العشب الدافئ في الحديقة، ويتمنى - صدقًا - ألاّ تعود للحالة التي كانت عليها: بعد الإجهاض، عندما قامت بقص شعرها؛ ليصبح قصيرًا، وعندما جرحت نفسها، وصومها عن الكلام معه لشهور عدة، لقد كانت فترة عصيبة، والتفكير فيها؛ مازال يخيفه، لدرجة أنه إذا ما تكرر ذلك؛ يخشى ألا تواتيه القوة، لمواصلة الحياة معها؛ فقد ينتابه القلق، حول قدرته على مواصلة الكفاح، في سبيل ما يتمنى من أشياء، فإنه عندما يكون مجهدًا هكذا - جراء قلة النوم وقلقه الدائم حول أشياء ضئيلة - تكون قدرته على الاستمرار مُحزنة، أو كما لو كان سيغزوه المرض. إن العالم - كما يعتقد- يمتلئ بمثل تلك البطولات الصغيرة، التي يصعب تصديقها، ويراها هو أعظم أثرًا، من البطولات الهائلة في التاريخ، وهو يظن أننا نجد القوة لفعلها، بطريقة أو بأخرى. أخذ ينحى تلك الفكرة بعيدًا عن ذهنه، تلك الرغبة الانقلابية المفاجئة نحو المأساة، بعودتهما معًا مرة ثانية، وها هو يفكر فيها، وهي تخطو فوق العشب المنتعش، ويعرف أنها سترفض مُبديةً أعذارًا سخيفة. تتعلق بالمسئوليات في مبدأ الأمر مثل: "عليَّ أن أقوم بالغسيل"، أو "ماذا سنفعل في موضوع البقرة؟"، أو "إنك لم تخبرني شيئًا عن أمر العجل"، لكنه سيتمكن من إقناعها، وسط تلك الأشعة الشمسية البديعة، ولسوف

يلتقطها، ويحملها - إذا لزم الأمر- حتى تضحك، وسيضعها فوق العشب الأخضر الدافئ، دون حذائها...

العِجْلُ الآخَر

يعبر الفناء، وفي جرن القش ؛ تقوم العصافير بالتقاط بعض الحبوب، الغُبار يغرقها كحمّام ماء، مثلما كانوا يفعلون في حظيرة البقر، من هنا؛ كان التراب يتصاعد، ممسكًا بأشعة الشمس، الهابطة من الشقوق الخشبية، وهي تتراقص في حلقات ذهبية، في حين أخذت الذبابات تطن وتأزّ، ومع اكتمال النهار كانت العصافير في كبد السماء، وبينما هو يأتي عابرًا الفناء؛ بدت الحرارة، كما لو كانت غادرت الفناء بالفعل، وانطلقت أسراب الحمامات التائهة، كانفجار في الهواء، واختفت فيما فوق المنزل على المدى. يرى"كيت" في الحقل الأول تخطو مُسرعةً نحو البوابة، رأسها مدلى لأسفل - وهو متأكد أنها تتحدث مع نفسها - شعرها مربوط، بعيدًا عن وجهها، كانت تمشي- ببطءٍ شديد، يدرك المشكلة؛ عندما تنظر عاليًا، وتلتقي عيناه هو بالدماء، تنساب فوق ذراعها: "أين كنت؟"، "لقد ألقت البقرة المتوحشة بعجلها للموت"، و"لم أستطع الحصول عليه.. لم أستطع إخراجه حيًّا منها". استمرت في الحديث، وهي تلعنه، وتلعن البقرة؛ لكنه خرج بحثًا عن تلك البقرة فعلاً. كانت البقرة البُنية السمينة، ترقد مجهدة مقابل ضفة النهر ؛ فأسرع إلى الحظيرة، ليحضر حبالاً، وتمنى لو كانت الدراجة معه؛ لسارت الأمور أسرع، ولقلّ معها ألم كاحله، وعرف أنها ستغضب منه لعدم إحضاره الدراجة.

كانت تقول: "أين كنت بحق الله؟"، و"لقد اعتقدت أنك ستحضر- مباشرة إلى هنا". كانت الحبال معه الآن، وهو يمضي مُسرعًا نحو البقرة، مُكفهرًا من الألم المتزايد بكاحله، كانت قد وقفت عند البوابة، ولم تأت معه لتقديم المساعدة - بلا سبب- لكنه استمر يفكر، في الدماء المنسابة

على ذراعها، وفي الزمن الذي جرحت فيه نفسها، داخل الحمام، وكانت لا تزال تصيح. كانت البقرة متهالكة تمامًا، و نصف جسم العجل المبتل خارجًا منها، مع واحدة من أقدامه الأمامية، الملتوية للداخل، لا تزال مع باقي الجسم، في بطن البقرة، وبدا العجل ميتًا، وغالبًا ما تبدو العجول كذلك؛ لكنها تعود للحياة ما إن تقوم بإخراجها من البقرة الأم، فوضع يده داخل البقرة، وبحث عن القدم المتخلفة، لكنه وجد الوضع خطأ برمته، وعرف أن الحافر قد جرح بطن البقرة من الداخل. أبقى عينيه مفتوحتين؛ لكنه كان يُحدّق في عدم. محاولاً تخيل شكل، ومشاعر العجل داخل أمه البقرة. كانت "كيت" لا تزال تصرخ فيه عند البوابة؛ بينما كان يحاول التفكير فيما هو فيه، وهي تكرر:

"أين كنت.... بحق الـ. لقد قلت إنك ستفحص البقرات منذ ساعة، وهذا ما جعلني أتخلى عن ذلك، كان عليك أن تخبرني،أنك لن تفحصها". واستمرت في السُّباب؛ فنظر إليها باختصار، وأخافه مرآها وهي تكاد تنهار هياجًا، شعر أن صبره يثور داخل جوفه، وأن الأدرينالين يسري في كل أنحاء جسده مهتاجًا؛ فصاح بها: "اذهبي.. اذهبي عني بحق الله". حاولت البقرة النهوض بنفسها؛ حين شعرت بالأشياء حولها، فوضع يده بحنان فوق جسدها، وأخذ يخاطبها مشجعًا: "بهدوء.. بهدوء"، واضعًا يده الأخرى فوق مؤخرتها: "بهدوء.. يا فتاتي". أعاد وضع قدم العجل الأمامية مكانها، فوق جسمه، داخل رحم أمه، لكن ليس بصورة تكفي لسحب العجل الوليد للخارج، نظر إلى أعلى مرة ثانية، وكانت "كيت"، قد خرجت من البوابة، في حين وقفت "إيمي" خائفة ؛ لكنها تنظر للمشهد في شجاعة. تناول الحبل، ووضع أنشوطته حول قدم العجل السليمة، وحاول أن يثبت باقي الحبل، خلف مفصل الكتف الآخر، أصبح العجل أعرج الآن، ولسانه يتدلى من فمه، فأستند إلى الخلف، وثبت

قدميه، وشد الحبل محاولاً توقيت ثقل الشد، مع نوبات الطَلْق، التي تأتي البقرة. وقد افتقد قوة شد إصبعه الناقص.

أحيانًا ما يكون ذلك الشعور في أصغر الأشياء التي تنقصك، وشعر بالأمور تتطور قليلاً؛ يسحب ½ بوصة للخارج؛ سرعان ما يشده جسد البقرة الضخم، ثم انتهى الأمرُ مرةً واحدة، وظهر العجل الأسود المتمدد، مصحوبًا بصوت وتدفق سوائل الولادة، كان ميتًا. هزه عدة مرات؛ لكنه عرف أنه مات، وانسابت الدماء غزيرة من رحم البقرة المفتوح، وتنهدت بعمق بطئ، متأثرة بصدمة الولادة، ومن علامات وضعها على ظهرها؛ عرف أنها تحمل توأمًا، ولابد أن يكون ذلك الآخر بداخلها قد مات بالفعل.

أصبحت "إيمي" بجانبه تمامًا، محدقة في العجل الأسود الميت، وبدا لها كبقعة من الإسفلت السائل، فوق طريق جديدة. قالت: "أمي تقول إنها لا تملك القوة الكافية، لجذب العجل من البقرة؛ ذلك هو السبب في موته"؛ فنظر إليها قائلاً: "لا يا حبيبتي.. هذا العجل لم ينْمُ جيدًا.. انظري هل ترين ذلك...؟ إنه لم ينْمُ بصورة سليمة، لقد كان ميتًا تمامًا يا عزيزتي.. كان يجب أن يخرج من بطن أمه". شغلته مسألة أن تلك هي الوفاة الثانية، التي تحدث اليوم، ورأى أن إلقاء جثة العجل الآخر في البئر؛ ستكون مشكلة، أي خطأ في المخزون؟ فكر في زوجته، التي مازالت تصيح؛ إذ كان يستطيع سماعها، وتساءل في نفسه، إذا ما كان كل ذلك خطأه هو؟ وإذا ما كان الأمر قد طال عليه كثيرًا؟ إن زوجته أتت من مدينة ريفية حقًا، واعتادت رؤية المزارع، لكنها لم تولد لتعيش في مزرعة مثله، هنا شعر بغضبه يتلاشى هذه المرة ؛ لقد تبخر واندثر. قال لابنته: "اذهبي وأخبري أمك.. أنا أحتاج إلى بعض الصابون والماء، ويمكنها أن تأتي لتساعدني، في إخراج العجل الآخر، فإن الذي أمامك هو الأول من

التوأمين"؛ انطلقت "إيمي" عبر الحقل، انطلقت وهي تشعر بأهمية الأمر.

تناول طعامه وحده، ولم تساعده "كيت" في توليد البقرة، كان حزينًا؛ إذ تسبب في ألمها، عندما صرخ في وجهها، ولم يكن حزينًا بسبب أن الأمر كان خطأً، وإنما كان حزنه زائدًا؛ كالحزن الذي يعترينا، عندما نؤذي حيوانًا ضعيفًا، لأننا الأقوى. كان من المفروض أن يأخذ "ديلان" سلال الخبز؛ ليعيدها، لكنه لم يفعل، لذا فقد قام "جاريث"، بإخراج سلال الخبز هذه من العربة الفان، ورشها بالماء، واستمتع خلال ذلك بالماء البارد، ثم تركها بجوار السور؛ لتجف تحت الشمس، دخل المنزل وغسل ذراعه بالصابون، وشعر بالماء الدافئ لطيفًا على جلده، لقد انتوى أن يجلب أنبوبة اسطوانة غاز ذلك الأسبوع ؛ إذ كانت هناك إشارة على موقد الطهي البوتاجاز، تدل على أن الغاز قد نفد، لذا كان عليه أن يأكل خبزًا وجبنًا مؤقتًا، وكان قد حاول الاتصال بابنه؛ ليطلب منه إحضار المزيد من الغاز، لكن هاتفه المحمول كان مغلقًا؛ فترك له رسالة، وهو يعلم -تمامًا- أن ابنه لن يفعل شيئًا، ويجب أن يسأل الطبيب البيطري، عن موت العجلين ؛ إذ قد تكون هناك مشكلة ما. كانت زوجته بالدور العلوي، مصابة بالصداع، ولا يدري هل يصدق وجود تلك الحالات من الصداع، أم لا !!.

لأن الأمر يبدو أمامه، كما لو كانت هي التي تملك مفاتيح تشغيل أو إيقاف ذلك الصداع؛ فكر في أن نوبات غضبها العنيف - هذه الأيام- قد تؤدي لتلك الحالات من الصداع المؤلم، فهي تغضب أولاً؛ ثم تصاب بها، حيث لا تجد متنفسًا لغضبها، فيحدث ذلك. حاول ارتشاف قهوته، لكنها كانت سيئة، دون غاز ينضجها، فحاول تسخين الوعاء؛ بإضافة ماء ساخن من البراد الغلاية الكهربائية، لكن ذلك جعلها خفيفة، وبلا أثر؛ مما أساء

إلى مذاقها. قـذف القهـوة في الحـوض... إنـه لـيس ذلـك الصـداع، الـذي يغضـبها، إنهـا هـي، إن انفعالاتهـا كقاذفـات الرصـاص، تطلـق عناصرهـا الكيماوية فيصيبها المرض، كما ظن أن ذلك، ربما يعـود لعينيهـا؛ إذ يعلـم أن العيون المريضة، تؤدي للصداع، لكنها لن تسمح بالكشف عليها، ومن الممكن كذلك - بوصفها فكـرة أخـيرة - أن يكـون السـبب؛ تلـك الحـرارة الدائمة، فإن بشرتها الرقيقة، لا تتحمل تلك الشمس، ويتساءل إذا ما كان يجب عليه، أن يذهب للاطمئنان عليها، لكنه يعـرف أن مـن الأفضـل ألاّ يذهب. فهي تصبح كالقنبلة اليدوية، عندما تكـون في وضـع كهـذا، فـإن الذهاب إليها - ببساطة شديدة- سيكون بمثابة نزع الفتيل، الذي يطلـق غضبها أو ربما تنفجر، وفي الأوقات القليلة، التي كانت تبدو فيها غاضـبة، كانت "إيمي" تغضب كذلك، لكـن "إيمـي" كانـت تبـدو مقطبـة الجبـين، وشديدة الحساسية، ومكتومة لدرجة أنها تبـدو كالقنبلـة كـذلك، وكـانوا يتضاحكون حول هذه الصورة، إذ إنها في حال هياجها الشديد؛ كان ذلك دافعًا لأن تقترب من قلوبهم أكثر. تجلـس بجـوار المنضـدة، وهـي تخـط بعض الرسوم، فوق صفحات كراسات الإسكتش، والحمار الوحشي، يتطلع إليها، وهي تتكلم أثناء الرسم.

عندما ترسم؛ فإنها لا تؤدي ذلك بملامح زائدة لطفل في مثـل عمرهـا، ولكنها ترسم رسومًا صـغيرة، كـما لـو كـان كـل شـئ ترسـمه عـلى سـطح الورقة، يتمتع بالأهمية والحيوية، فإن الرسوم تتدفق بالتفاصيل؛ لدرجـة أنها تُضطر لشرح الأشياء للناس، عندما تريهم مـا رسـمت، مثـل: الأدوات المتنوعة، وسكان العوالم المختلفة، الذين تخلقهم على الورق، والتي دائمًـا ما تكون عوالم متطورة في مكان ما، ودائمًا ما تكون في إطـار غـير غريـب، لقصة: حيوات منعزلة، دائمة التنائي، ولو أنـك سـألتها عـن الصـورة التـي صنعتها، لكانت إجابتها -دومًا- يغلفها اللون، فإن هذا فطر عش الغراب

الأحمر، وهذا رداء أخضرـ ناصع. لكنها لم تقم بتلوين ما ترسم على الإطلاق؛ لأنها ستتولى الرد بقولها: "أنا أعلم ألوان تلك الأشياء"، فهي ترسم من الذاكرة فقط، ولا تنظر إلى الأشياء لترسم، كما لو كانت واقعية. تلك الأشياء، ستقوم بتدمير أماكنها على الصورة. وتبرر ذلك بقولها: إنها لا تملك أقلام الألوان المناسبة، لما تراه من ألوان بنفسها. ذات مرة سألها "جاريث"، عن تلك السحابة متناهية الصغر، المكونة من نقاط، تكاد لا تُرى؛ فقالت: "إنها سحابة من الشرائط المجنحة، التي نراها هذه الأيام، كل ما في الأمر، أنها شديدة الضآلة، بحيث لا يمكنك رؤيتها كأشرطة مجنحة"، وهي كثيرًا ما تضع فارقًا بين الأشرطة المجنحة، وبين ظهور الجنيات، والأمر ليس به خداع منها؛ إذ إنهم حال رأوها-في ذلك اليوم- صاح "جاريث": "انظروا.. ها هي الجنيات"؛فأجابت: "لا.. إنها مجرد حشرات، وأنا أعرف لماذا يظنها الناس جنيات"؛ فإنها تؤمن أن الأشرطة المجنحة، من عالم السحر، شأنها شأن الجنيات؛ سواء بسواء.

بداية معرفتهم بأمر الغرابة، التي تستحوذ على سلوكها، كانت يوم دخلت غرفتها ذات ليلة، وقالت -دون فزع يحتويها: "ماما.. هناك رجل على السلم"؛ فردا عليها: "إنك تحلمين يا عزيزتي"، وطلبا منها أن تنام في سريرهما معهما. وبعد فترة بسيطة؛ قالت لهما بوعي كامل: "كان هناك رجل؛ لكنه لم يكن مزعجًا، كنت ساعتها ألعب مع دُماي؛ وأخذ يتحدث إلي عبر الباب"، وأظن أنه يعرف الولد الصغير، بين ألعابي كما فهمت.. منذ ذلك الحين تعلموا أن يتركوها، تتحدث مع أولئك الناس، فهناك هدوء غريب يتملكها، وثقة كما لو كانت - دائمًا - تنصت إلى موسيقى غير مرئية، وهي الآن ترسم عالمًا من الضفادع والجنيات، جنيات النهر - تحت الماء - حيث يمكن أن يتواجدوا كما تقول مع الضفادع، واليرقات

الوليـدة، وأنصـاف الضـفادع، تلـك الكلمـة التـي صـاغتها -كـما يتـذكر- خصيصًا لهم.

الضَّفْـدَعُ الأَمِـيْرُ

أخذوا بويضات الضفدع من البِركة في أبريل؛ قبـل أن تصـل إليهـا أسراب البط، وعندما امتلأ المنـزل بالحيـاة، مـع عـودة الفراشـات، وبعـد أسبوعين - أكثر أو أقل قليلاً- أخذت البويضـات تفقـس في خـزان الميـاه الزجاجي القديم، استغرق نمو أرجلها مكتملة، حوالي ثلاثة أشهر، وكانـت "إيمي" تلاحظهم، منذ لحظة جمع تلك البويضـات في الخـزان الزجـاجي. لقد شاهدت من الأمور مالا يصدق، حيث تحولت النقـاط السـوداء، إلى ما يشبه الأسماك، داخل قطع من الجيلي، تثير الضحك، ثم فقسـت تلـك البويضات؛

عندما اكتمـل نمـو أرجلهـا، تظـاهرت باعتقادهـا أن تلـك الحيوانـات الوليدة، إن هي إلا أُناس أقزام، أُسروا في جوف هذه الأسماك، ولم يخبرها "جاريث" بحقيقتهم. قامت بعض الضـفادع الوليـدة.... الكبـيرة، بالتهـام بعض من أخواتها الصغيرات، وقد أفزعها ذلك، وشاهدتهم وهم يتغيرون في زمنٍ، بدا لهـا طـويلاً، قبـل أن يتخـذوا شـكل الضـفادع شـبه الكاملـة، واسـتطاعت أن تخمـن طبيعـة هـذه الأشـياء، رغـم أنهـا لا تـزال تسـبح بذيولها الصغيرة. قاموا بإطلاق تلك الضفادع في يونيو. كـان هنـاك واحـد منها قد تحول بصعوبة؛ من طور السركاريا بالكاد إلى طور الضفدع، وقـد أفلت من أن يؤكل لصغره، وظنوا أنه وليد مريض، لكنـه في شـهر يونيـو، أو ربما يوليو؛ بدأ في التغير والتحول كالآخرين، إنــما بصورة مختلفة عـن بقية الضفادع.

عندما اكتمل نضجه؛ تبـدى في شـكل سـحلية، أصـاب "إيمـي" مرآهـا بالـذهول، إذ إنهـا ظنـت أنـه ضـفدع، يحـاول أن يصـبح أمـيراً. يتـذكر

"جاريث"؛ وقت أن حاول شرح طبيعة الزهرة الهندية البرية لها، التي كانت تحبها بشدة - ربما بسبب تحولاتها السحرية، حبها لتلك الأشياء، التي لها حقيقة، غير ما تراه الأعين، كانت تحب اللعب بهذه الأزهار البرية؛ لتحديد الوقت، منذ علمتها أمها كيف تتعرف على الوقت، باستخدام تلك الأزهار الجميلة، وكان هذا القرار غير الطبيعي، بالنسبة لتحديد الوقت، يتواءم - تمامًا- مع طريقة "إيمي" في رؤية العالم.

ذات يوم استغرقت؛ وقتًا طويلاً في قطف تلك الأزهار، واستقرت هذه النباتات الجميلة، فوق أرضية غرفة نومها في فخر وزهو، وفي الصباح التالي، عندما لم تتحول هذه الأزهار إلى ساعات زمنية؛ ظنت أن ذلك ربما يعود إلى بقائها محدقة فيها طويلاً، وأن السحر يتم؛ عندما تتوقف عن النظر إليها، وحاول "جاريث"، أن يشرح لها ضرورة الإبقاء على الزهرات حية؛ كي تتمكن من التحول إلى ساعات دالة على الوقت، لكنها قالت:

"لقد كانت الزهرات ميتة، عندما كانت تؤدي عمل الساعات"

فقال محاولاً الإجابة: "حسنًا، لقد تغيرت الزهرات.. وكان لابد أن تظل حية ؛ كيما تتحول.. والزهرة يجب أن تموت لتصبح بذورًا، فهي تموت لتنبت لنا زهورًا أكثر.. فإن زهرة واحدة تموت؛ تمنحنا آلاف الزهور الجديدة.. والناس لا يفعلون هذا.. أليس ذلك حقًا؟".

فقالت: "لا..".

ردد "جاريث": "إن الناس لا يفعلون ذلك حقا".

التَّـــوْأَمَانْ

ساعدته "إيمي" في مشكلة البقرة وذلك بالتعاون في جذب جسم العجل الوليد الثاني، وكان عجلاً صحيح البدن بُني اللون، عادت تتعثر عبر

العشب، حاملة دلو الغسيل، المثقل بمائه الصابوني، ومنشفة فوق كتفها، ظلت تنزلق منها؛ فكان عليها أن تضع الدلو كل فترة على الأرض، لتلتقطها ثم تعود لحمل الدلو من جديد، بيديها الاثنتين، وتبدأ مرة أخرى والدلو يتخبط، وينثر ماءه فوق قدميها ونعليها؛ وهي ماضية في طريقها، لكنها تحب حذاءيها بشدة ؛ حتى في ذلك الطقس الحار، وكانت قد أجرت حديثًا طفليًّا طويلاً ومهمًّا مع حمارها الوحشي، ثم تركته هناك عند البوابة.

قالت: "أمي تشعر بصداع ؛ لذا جئت أنا إليك".

سمع نفسه يفكر بصوت مسموع :"لا يجب أن تكوني هنا أبدًا".

عرف -في أعماقه - أن عليه أن يكون حذرًا؛ لأن بقايا غضبه، مازالت كامنة، ولا يريد أن يعود لهذه الحالة، إذ إنه لو انفجر ؛ ستكون النتيجة شديدة السوء. حك إصبعه بصوت مسموع، وحاول أن يقرأ الجريدة ؛ لكنه كان يفكر، رأى أن التوأمين، كان من المتوقع أن يموتا معًا؛ لكن ذلك لم يحدث، فبينما كان يتحسس داخل رحم البقرة؛ توسل -بصدق- أن يكون المتبقي حيًّا. وأن يكون هناك خير من وراء هذه المأساة، ولو كانت النهاية سارة، ود لو كانت كيت موجودة معه ؛ لتشاهد الفَرَج بعد تأزم الأمور، كانت "إيمي" تنحني فوق البقرة الأم، وتربت على خصلات الشعر المتكور، فوق عينها، مقلدة والدها، وهي تقول:

"مهلاً يا فتاتي"،"يا بقرتي"،"بهدوء.. هذا طيب".

سمعا صوت مزارع آخر؛ مناديًا غنمه من بعيد، فلكل مزارع طريقته في النداء. وإذا لم تكن مزارعًا؛ فإنك لن تستطيع مناداة أغنامك، دون أن تبدو - في الظاهر- غبيًّا ومضحكًا. برز العجل الوليد إلى الوجود، وكان عجلاً قويًّا، وضخمًا، وصحيح البدن، تمدد العجل، يلتقط أنفاسه بعمق، في حين كان هو يقرب العجل من أنف أمه؛ حتى تتعرف عليه، وتبدأ في

تنظيف وليدها، ولم تزل "إيمـي" تربـت عـلى رأس البقـرة النـاعم، وهـي تقول: "فتاة لطيفة.. مهذبة"، وتتطلع -في دهشة - إلى العجل الوليد، كان يفكر في كل ما تفعله ابنته، وهو جالس إلى المنضدة، والجريدة بين يديه، وهي تجري لتحضر الماء الدافئ...

الفَصْلُ السَّادِسُ

الأَرْضُ التِي أعلى الطَّرِيقَ

إنها تهتم بما يحدث، وتقلق بشأنه، وتنزعج من سعيّه للحصول على الأرض، بل ويزداد قلقها حول ابنها، وهو يقود سيارته، و"إيمي" وهي تلعب خارج البيت، ويزيد همها جنون "بيل"، ووجود اسطوانة "أنبوبة" الغاز بجوار موقد الطهي، بصورة خطرة، وتلك العجول الصغيرة، التي سوف تموت - آجلاً أو عاجلاً - والغنم الذي يتساقط؛ فريسة للمرض. و فوق هذه الهموم كلها؛ يأخذها القلق، من أنهما سيصبحان كبيرين جدًا ذات يوم، وغير قادرين على الزراعة، ويعلم جيدًا أنها تفكر أحيانًا، في الحصول على كوخ ريفي، لكن ذلك سيؤدي لإفلاسه - هو زوجها- وتعلم هي ذلك يقينًا.

هو يريد الأرض ؛ لأنه يعرف أهميتها، ويعرف أن أولاده لن يتمسكوا بإدارة المزرعة، في حين لا يحتمل هو أن يهجرها. ولو حصلوا على تلك الأرض، وبنوا عليها منازل ؛ فعندئذ يمكنهم تأجير بعض هذه الحقول، ويمكثون هم في بيت المزرعة، يعتاشون من الدخل الذي يكسبونه، من وراء ذلك. وربما يستطيعون زراعة قليل من النباتات الضرورية، لكن"

كيت" تقلق بشأن هذا أيضًا؛ فإنها دائمة القلق، حول كل شئ، ولا ينتهي قلقها أبدًا، وهو يدرك أن ذلك أسلوبها، عندما تحاول الشعور بأن الأمر ليس عشوائيًّا، وإنما هي تملك بعضًا من السيطرة هنا؛ لكنها أشياء لا تملك أنت السيطرة عليها.

البردي

خرجت البقرة تتمشى، حيث استيقظت ليلاً، وبدأت تمشي، وكانت مجهدة، وبمرور الوقت بطيئًا؛ أشرقت الشمس عليها، بعد مسافة طويلة في المزرعة، وكان كل ما رغبته؛ فقط ألا تكون داخل الحظيرة. عندما وصلت إلى حائل نباتي ما؛ أسندت جسمها الثقيل الضخم إليه، ثم مالت ميلاً بسيطًا فقط؛ إلا وينكسر الحائل ويتحطم ويفرقع مدويًّا، تمنت لو كان سورًا من النباتات فقط، فمضت من خلال الثغرة، التي وجدتها، ثم تركت جسدها يشق طريقه عبر قطع الأخشاب الصغيرة، والأشواك، والأشجار الميتة الجافة، ولو كانت بوابة فما كان عليها سوى أن تميل بجسمها، وتدفعها أمامها، وهكذا استسلم الحائل؛ لأن العديد من البوابات، لم تكن مُقامة بصورة جيدة، وإنما معلقة بأعمدتها المفككة بخيوط وردية اللون، ولم يؤد ذلك إلى تدمير كبير؛ لأنها كانت بلا قرون، حيث يقومون بقص قرون البقرات -عند ميلادها، وعندما تداعت أجزاء الحائل النباتي تحت ثقلها؛ شعرت بغرابة،وكأنها مبرمجة، واضطربت كما تضطرب باقي البقرات تمامًا، واستمرت في السير فتزداد تعبًا وإجهادًا تحت حرارة الشمس.

كانت ثقيلة بحملها بوليدها الذي لم يكن وُلد بعد، وتلك لم تكن المرة الأولى لحملها، لذا كانت تعرف ما سيحدث لها، وأدركت وجود العجل؛ لكنها بالطبع لم تحب الحرارة المرتفعة، وما إلى ذلك، فاستمرت في سيرها خارج الجرن، وجرحت الأشواك ضرعها الممتلئة حليبًا، وتبعتها

أسراب الذباب، تحط على جلدها الدافئ حول عينيها؛ فكان عليها أن تهز رأسها وذيلها لطرد الذباب بعيدًا. توقفت برهة لتأكل -كما تفعل كل البقر- تقوم بلف الحشائش الطويلة، النابتة من السور، وتقذفها إلى فمها بواسطة لسانها، الذي كان ضخمًا ومتوردًا كساق طفل صغير، والعشب كان أكثر طراوة من القش الدريس، ومن الأعشاب القصيرة بالحقل. عند ذاك الوقت ؛ لم تكن البقرة، تعرف أين هي بالضبط؟

واستمرت الشمس في السطوع، وأضحت أكثر سخونة، بل إن السخونة نفسها، انبعثت من جوف الأرض، التي تعرضت لأشعة الشمس لفترة طويلة، هنا هبطت البقرة، نحو ضفة النهر، وحكت جسمها في الرمال، وتمرغت فيها، ورقدت لفترة بسيطة، وكان ما بدا لها أنه على بُعد أميال منها، هو صوت البط الذاهب إلى البِرْكة. في اللحظة التي كان لون البقرة رماديًّا بفعل التراب؛ لعبت الطيور حولها الآن، بعدما أدفأتها الشمس وضفة النهر. فيما بعد؛ زادت حرارة البقرة كثيرًا، حتى إنها قامت على أقدامها مرة ثانية، وهي تشعر بحركة العجل داخل رحمها، فرفعت ذيلها ومنحت نفسها ربْتةً رطبة طويلة على جسمها، واستمرت في المسير. وإلى هذه اللحظة؛ كانت ترفع رأسها عاليًا، عندما تسير متهادية.

دخلت المستنقع؛ حيث تذهب كل البقرات - فيما يبدو- عندما يخرجن متابعات أنوفهن؛ قدمًا وراء قدم، وراء قدم، وبمؤخراتهن العريضة ؛ يمضين في البِرْكة قُدمًا. وعندما كُن يصلن إلى البِركة ؛ كُنّ يتوقفن للتفكير حقًا. لم يكن المستنقع سيئًا إلى هذا الحد الآن، بسبب الطقس الجاف غير المريح، والشمس الثابتة، لكن في الغالب؛ كان هناك طينٌ ممزوجٌ ببقع من البوص الأخضر، وآثار أقدام الطيور، ولم يكن يماثل الأرض الجامدة في الحقول. تناثر الصفصاف الرقيق، وشجيرات البندق في

كل مكان؛ لذا سرعان ما بدأت البقـرة تـدوس فتكْسـَر، وتشـق طريقهـا فتُحطمّ، لكن ذلـك زادهـا اضـطرابًا واسـتهلك قواهـا، وتحـت أقـدامها - حيث جفت الأرض – كان للمستنقع شكل مثير، من الصعب السير فيـه، فإن السير وسطه؛ كان يصدر قعقعة عاليـة، أشـبه شـئ بأغصـان صـغيرة تحترق، وسارت في السبخة لبعض الوقت، وترى هنا وهناك؛ شجرة بلوط ضخمة، شقت طريقها عبر فروع الأشجار الأخرى، وانتصبت كرجل، يقف على أكتاف رجل آخر. وكانت أغلب أجزاء المستنقع قاحلة، ولـيس سـوى الطين الممتد فعلاً للمسـتنقع، كـما كانـت هنـاك مسـاحات ممتـدة مـن أشجار العُليق التوت البري، وبعض من نباتات البردي الجافة، التي جفت وبهـت لونُهـا، تحـت حـرارة الشـمس، وكانـت دافئـة، وطويلـة الأوراق، فأخذت البقرة تدور بجسمها مرات ومرات وسطها؛ حتـى صـنعت منهـا عشًّا، أوت إليه تلتمس الراحة.

رفع "جاريث" - دون وعي - المفرش من فوق المنضدة القديمة، وأخذ يقوم بتنعيم حبيبات الخشب - الناعمة أصلاً- بيده، فـإن بعـض النـاس، يحبون الأنواع الجديدة من الأشياء، وآخرون يفضـلون مـا امتلكـوه فعـلاً لفترات طويلة.

أما الجو، فإنه لطيف البرودة - الآن - داخل المنزل، وكانوا قـد جلبـوا المنضدة إلى المزرعة من المنزل القديم؛ عندما انتقلـوا هنـا. فـاعتبر وضـع المنضدة في هذا المكـان، حـدثًا جلـلاً؛ لـذا فقـد نظـر إلى أطبـاق كسرات الخبـز، وإلى قطـع الجـبن المكشـوفة؛ وقـد بـدأت تتجلـد كقطـع مـن البلاستيك. كانت الأسرة - من قبل- تأكل في المطبخ على المنضدة الأصغر، تاركين المنضدة الكبرى المصنوعة مـن خشـب البلـوط لأمسـيات الآحـاد، ودعوات العشاء الخاصة، و.... والضيوف. وفي هذه اللحظات؛ كان يسمع صوت خربشات، صادرة عن محاولات "إيمي" في الرسـم، وعنـدما انتقلـوا

إلى المزرعة، تناولت العائلة طعامها على تلك المائدة الكبيرة، وشغل تفكيره أن موت عجلين، يعد أمرًا سيئًا، مع احتمال انتشار المرض بين الماشية. لأن الأبقار؛ أضحت الآن الشغل الشاغل لهم؛ فإنهم يقومون بتربية الماشية؛ باعتبارها رأسمال مخزون، يربونها لبيعها عقب اكتمالها؛ للحصول على لحمها وغيره. لذا فإنه من المهم أن تكون عجولها سليمة. نظر "جاريث" إلى ابنته وهي ترسم، تلك الناعسة المتوحشة الصغيرة، وكيف تمضي أمورها مسرعة بهذه الأهمية؟ وابتسم في دعة، فما هي إلا تسعة أيام؛ وتبدأ في الموت..

عَيْشُ الغُرَابِ

تظل بعض زهرات الجريسات الزرقاء نامية بالخارج. ستذهب "إيمي" إلى الأحراش؛ بصحبة حمارها الوحشي للعب، ولسوف تجد هناك فطرًا جميلاً أبيض، يزدهر بعد المطر، فتراه الحمامة، التي تهبط عندها، وتضع الحمار الوحشي على الأرض، والجنيات يدرن حولها، وتتناول غذاءها من فوق مائدة، صنعتها لها شجرة متهالكة، ذلك هو مخبأها السري، وسوف تظن أنها لا يجب أن تتناول الفطر في غذاءها؛ لكنها تحب الفطر جدًا، وهو أبيض اللون، مثل ذلك الذي ينمو في مزرعتهم، ورغم أن مذاقه سيختلف؛ إلاّ أنه حلو كرائحته، ثم أنه سيكون مرًّا - وكل ذلك يحدث فجأة؛ لذا ستتوقف عن أكله، وتشعر بالأسف؛ لأنها قامت بجمعه، ولسوف تخفيه؛ لأنه كان شيئًا جميلاً، قبل أن تقطفه، وكأنها تفسد زهرة.

سيكون الفطر كبيرًا، بما يزيد عن ملء يدها، ويشبه قبعة مائلة، كالتي ترتديها إحدى دماها، ولكنه يبرق كورقٍ مصقول، أما جذعه؛ فسيكون ممتلئًا بالشعيرات المتداخلة -هنا سوف تتذكر شكل أظافر والدها، وهي تتقصف وتتقشر- كما سيكون له كرة ضخمة عند قاعدته،

وكأنه موضوع داخل كيس، وسوف ترى أوراقه البيضاء، وثمرته الناصعة البياض، كأنها ملاك حقيقي. سترى بنفسها نباتات الفطر، طوال تسعة أيام من الآن؛ بينما تستيقظ في الليل لتفرغ ما في جوفها بقسوة، عندها ستصبح شديدة الظمأ، كأنها تحترق عطشًا، ولسوف تنادي أمها وأباها؛ فيهرعان إلى جوارها على السرير، ويحكمان وضع الأغطية حولها، وهما يعيدان ترتيب لُعبها، مخاطبيّن حمارها الوحشي؛ بينما تلمس أصابعهما رأسها الدقيق. ورغم ذلك؛ لا تتوقف عن القيء.

ثم يبدأ دور الإسهال؛ فتلطخ سريرها. وهذا الإسهال يصاحبه ألم مفزع؛ فتشعر كما لو أن شخصًا ما، ينتزع منها معدتها بيد ضخمة عاتية هنا؛ سوف ينقلانها إلى سرير والديها، سيغرقها العرق بغزارة، وتشحب، وتهزل في لحظات، وتكسوها ملامح المرض الخطير، ويحدث كل هذا في سرعة مذهلة. سيقوم والدها باستدعاء الطبيب، الذي سيأتي؛ فيدرك أنها حالة تسمم من نوع ما، لكنه سيخبرهم أنها قد عبرت مرحلة الخطر، وأن أجسام الأطفال، تتفاعل بعنف مع أصغر الأشياء خطرًا، وذلك حفاظًا على حياتهم، رغم أن ما يبدو لهم شديد الإزعاج، إلا إن كل شئ سيكون على ما يرام.

سيطلب منهم أن يتركوها لتنام، ولأجل أن القيء لا يتوقف؛ سيجدان يديها وقدميها عند الصباح باردتين، كما لو أنها باتت في الثلج، وهنا سوف تفزع وتقلق، مثلما تكون أنت في حالة من الحمى، لكنها لن تخبر أحدًا بخبر فطر عيش الغراب؛ لأنه كان موضوعًا قديمًا. في المستشفى حيث أخذاها؛ لأن صحتها لن تتقدم، ولأن بشرتها أصبحت شديدة الشفافية، بصورة غير طبيعية؛ سيجرون لها بعض الاختبارات العجلى، وسيقومون بتركيب أنبوب يصل إلى معدتها عبر فمها، ويشفطون محتوياتها، ولكن عند هذه اللحظة، سيكون السم في أماكن أخرى من

جسمها الرقيق، أما جاريث، فإنه سيصيبه القلق عليها بالمرض؛ لذا لن يتمكن من الذهاب للمزاد، ثم بعد يومين ستصبح بخير. سيعيدانها إلى البيت، ويبدو عليها الشفاء، وسيقول الطبيب لهم إنه كان على حق، عندما أخبرهم أنها كانت تتفاعل بشدة مع بعض الأشياء؛ لأنها كانت صغيرة، ففي المزارع توجد كل الأخطار والهموم - ولسوف يقول ذلك- كما أن الأمر، سوف يبدو غريبًا وشاذًا بنظرهم، أن تصبح مريضة إلى هذه الدرجة، ثم فجأة وبقسوة صاخبة، سوف تموت[1]. ويدخل الطفل الصغير، الذي تراه - بنفسها- ليتحدث معها؛ بينما تحتضر لكن الأمر مازال سيئًا.

[1] يُعد التسمم بعيش الغراب المنقط إصابة مميتة. إذ إنه قد يقتلك منها نوع من السموم، يسمى: الأماتوكسينز، وتدعى أيضًا قلنسوة الموت، في حين لا تؤثر سموم الفالوتوكسينز، تأثيرًا خطيرًا على الإنسان. وتسمى الإصابة بتسمم عيش الغراب: الملاك المُدمِر، حيث يؤدي جزئ بروتيني سام منها، إلى عطب نواة خلايا الكبد؛ متسببًا في إيقاف عملية تكوين البروتينات؛ فتبدأ الخلايا في الموت. حين يأخذ السم في الانتقال عبر الكُلى؛ تحاول تلك تنقية الدم منه، لكنه يهاجم القنوات الكلوية الدقيقة، وبدلاً من أن يجد طريقه إلى البول؛ يعود مرة أخرى إلى الدم، فيهاجم كل شئ يقابله: مرات ومرات، مفتتًا إياه إلى جزيئات معطلة بصورة متكررة، وهنا يكون من الأفضل للمصاب أن يموت

الفَصْلُ السَّابِعُ

هُـنَاْكَ صَـوْتٌ كَـهْرَبِيٌّ لِلْطُـيُوْرِ

نامت البقرة للحظات، أو نعست؛ وهي تمضغ ما تجـتره مـن جوفهـا، من الحشائش التي التهمتها عند السور النباتي، على حافة الحقل، وعندما اسـتيقظت، ارتعبـت إذ وجـدت الطيـور تتقـافز، وتتخـاطف مـا حولهـا، وشعرت أنها مراقبة، كانت دافئة جدًا بسبب الشمس، وقد غفـت قلـيلاً، ثم نهضـت... وواصـلت المسـير، كانـت تصـطك بمـا حولهـا، وهـي تشـق طريقها، عائدة عبر النباتـات الكثيفـة الجافـة. بـرز وسـط الطـين؛ قفـص صدريٌ من العظام البيضاء، كأنه آلـة محطمـة، فـإن العديـد مـن البقـر، مات في هذا المستنقع، إذ تغوص قوائمـه فيـه ؛ فتلتصـق، ولا يجـد المـرء، مفرًّا من قتلها بالرصاص في مكانها؛ رغم أنها تجاهد للخروج من مأزقهـا، ولا تدري أنت إذا ما كانت البقرة، قـد أمعنـت الفكـر في موتهـا، عنـدما شاهدت تلك العظام أم لا، كانت قـد غـادرت قطعـة أخـرى مـن الأرض الخضـراء، وهــي ماضـية قـدمًا؛ دون سـبب، وبـلا هـدف، اتجهـت عـبر الحقول.

مشى "جاريث" نحو المستنقع، والحرارة تلتهب، وبدا كل شـئ هادئـًا مستسلمًا، وكان الخروج في هـذا الجـو - بعـد الغـداء- أشـبه بالاصـطدام

بحائط مـن النـيران، ولم يـتمكن مـن رؤيـة شـئ لبضـع لحظـات ؛ حتـى اعتادت عيناه الضوء المبهر، وقال لنفسه:

"إذا جاء الطبيب البيطري فمن الضروري أن أحضر البقرة الأم".

ومضى في الطريق، الذي ظن أن البقرة مشت فيه، عابرًا الحقـول، ولم يدرك إذا ما كانت البقرة في المستنقع الآن أم لا، فهي سوف تصنع عشًّـا، وترقد عليه؛ لتلد عجلها بهـدوء. عـبر الطريـق، فـيما وراء الأرض، يسـمع نباح كلب، وصيحات جاره الغاضبة؛ فتحول غضبه، الذي يمـور بأحشـائه لهم، ذلك الغضب الذي ثار حقًّا بسبب البقرة، وبسبب الأرنب، وبسـبب كاحله الذي يؤلمه، وحاول توجيه كل هذا الغضب؛ ليصـبه عـلى جيرانـه، إنهم قوم سمان أشرار، لا يعرفون شيئًا، ولا يحبون شيئًا، ويتبدى ذلـك في سلوك كلابهم، وكانوا قـد جـاءوا هنـا منـذ زمـن مضى؛ ليسـكنوا مزرعـة "بيل"، وفي نيتهم الاستفادة مـن أرض المزرعـة، لكـنهم تركوهـا للخـراب، وحاول أن يحب جيرانه الجدد، لكنهم ليسوا ممـن يمكنـك أن تحـبهم في نهاية الأمر.

كان متأكدًا أن واحدًا من كلابهم، هو الـذي قتـل قطتـه، لقـد فقـدوا القطة الصيف الماضي، وظنوا أن بعض السائحين، قـد أخـذوها، آملـين أن تكون الأسرة التي أخذتها، أسرة طيبة؛ فإن كثيرًا من السائحين، يأتون كـل عام، ومعظمهم مـن المـدن، ولا يعرفـون كثـيرًا عـن الريـف، الـذي يُعـد متنزهًا لهم فقط، وعندما يرون قطـة، يظنـون أنهـا ضـالة؛ لعـدم وجـود منازل قريبة منها. يلاطفونها ليأخذوها معهم؛ شـاعرين بالأسـف لأجلهـا، والأسوأ من هذا، ولأنهم لا يفهمون طبائع الأشياء، تدخل القطـة العربـة، وتبدو المسألة أشبه بعملية اختطاف، وهنا يتخيل القطة - فجأة- وسط المدينة، يملؤها الخوف، لكنه يعلم - تمامًا- أن كلاب الجـيران، هـي التـي أخذتها. ذات مرة؛ جاء أحد كلابهم - وهو من النوع الألزاسي القـذر غـير

المدرب- إلى ممشى المزرعة، ودخل الفناء، حيث كانت "إيمي" تلعب؛ فهجم عليها، وهو ينبح بشدة في وجهها، لكنها لم تصرخ، ولم تتحرك، وجاء الكلب كيرلي - رغم هرمه- وأخذ ينبح هو الآخر في مواجهته رغم أنه يعلم أن ذلك الكلب قد يقتله في اللحظة التي ظهر فيها ابنه، الكلب جولشي؛ فهجم بشجاعة على الكلب الغريب، الذي هرب مسرعًا خارج الممشى، رغم أنه تردد مرعوبًا للحظة في مبدأ الأمر.

سيكونون في الحقول مع الحملان ذات يوم، ولسوف يأخذ "جاريث" بندقيته معه، ولسوف يقتلهم، ومن ثم يعيد جثث الكلاب المقتولة لجيرانه، وإذا ما تفوهوا بكلمة؛ سيفجر غضبه فيهم، لأن غضبه سيمنحه قوة هائلة. عندما حصل جيرانه على كلابهم؛ تناقشوا معًا حول تسمية هذه الكلاب، وكانت أول فكرة سخيفة طرأت لهم، هي أن يعطوها أسماء ويلزية، وهم لا ينطقون اللهجة الويلزية بدقة، ولم يتفقوا على أسماء بعينها، أخيرًا -في تحد واضح- أعطوا اسمًا لكل واحد منهم، وأصبحت الكلاب أدوات يستخدمونها ضد بعضهم البعض، مثل كل شئ آخر حولهم، قامت المرأة بتسمية الكلبة، التي تشاركها بعضًا من سماتها: تشر، اقتداءً باسم إحدى نجمات موسيقى البوب، وقام هو بتسمية كلبه باسم أحد العظماء، وكان يناديه بصوته، الذي يشبه صوت الدجاجة - صائحًا عبر الحقول - لأن هذا الكلب كان دائمًا في حالة هرب، والكلاب تتقاتل أيضًا باستمرار، حيث إن الكلاب صورة مكثفة لسادتهم، يتعلمون بالملاحظة لا بالتأديب. عندما كان "جاريث" يتفقد مخزنه ليلاً - وهو يشتهي فضاء الليل الطويل- يسمعهم وهم يتعاركون، وتمزق أصواتهم الغاضبة صمت الحقول، وكلابهم تنبح معهم - مثل ما يحدث الآن- فيثير ذلك غضبه؛ لأن هذا انتهاك فاضح، لهدوء هذا المكان البسيط.

الوَحْـش

اعتادوا أن يشيعوا القول، بأن المستنقع مسكون بالأشباح؛ كي يخشـاه الأطفال، فلا يقتربون منه، وكان من السهل أن يؤمن المرء - أحيانًا خاصة الآن في ذلك العالم شديد الجفاف- أن هناك وجودًا لهـذه الكائنـات، مـع شعور بأن المرء مراقب، وأن الأشباح تنتظر.

وجد "جاريـث" روث البقـرة - الـذي أخـذ يجـف- حيـث اسـتراحت بجوار الضفة، وقد تكاثرت عليه ذبابات برتقالية لامعة، تفترس الحشرات الأخرى، المتجمعة حول الروث، وتضع فيـه يرقاتهـا؛ فعـرف عندئـذ أنهـا توجهت نحو المستنقع. وجد آثار حوافرها في الطين الطري، الذي يعلـو - عادة - حتى يصل خصره، وهذا مستحيل الآن، كانت البقـرة قـد شـقت طريقها، وكان من السـهل تتبـع الآثـار الغـائرة، لمسـيرة جسـمها الثقيـل، وبدت الأرض، كما لو كانت تتضور جوعًا، وتذكر "جاريث" موضوعًا قرأه في جريدة، منذ فترة طويلة، عـن فتـى عمـره ثـلاث سـنوات، ظـل يتتبـع الأشجار المتساقطة ؛ حتى تاه في الطريق.

وكان قد تتبع هذه الأشجار؛ لاعتقاده أن ديناصورا ضخمًا، هـو الـذي أسقطها، وأراد أن يتحدث مع الديناصور. ويتخيل "جاريث" ذلك الفتـى، وهـو يتتبـع الأشـجار المتسـاقطة، الممزقـة أشـلاءً في الأرض. وكـان الفتـى اسكتلنديًّا، ويتذكر ذلك بوضوح؛ إذ إنه بعد ست عشرة ساعة؛ سيجدونه سـالمًا. كـان غريبًـا أن يفكـر في والـده، حتـى ذلـك التـاريخ البعيـد في اسكتلندا، خلال الحـرب، رغـم أنـه لم يـتكلم أبـدًا، عـن الحـرب حقيقـة، وبقراءة المذكرات؛ كان مثيرًا أن يعـرف أن والـده قـد أُرْسِـل إلى: "ديـك"، و"دوندي"، و"اوركني"، و"برايتون"، و"إسكس" في أحراشها، و"كارليسلي"، يبتسم؛ إذ يتخيل أبيه، وهو يكتب: [عندما كان "هتلر" يمارس كل أدوار الشر، وكـل الموبقـات التـي يمكـن لشـيطان مـن نوعـه أن يقـوم بهـا...]

وتخيل والده؛ وهو يرطن بكلمات ألمانية، وتمعن فيما مَثَّله السفر إلى مدينة ديك لأبيه، التي هي أبعد مما ظن أن يرى من أماكن، حيث عمل هناك سائقًا، وتابعًا لواعظ السَّرية، وعندئذ في أقصى- اسكتلندا ؛ مرت ثلاثة شهور،هي الأسعد في معترك الحرب المغبر، وهو يقود السيارة مرتادًا المنطقة مع الواعظ، وكان يذكر الوقت، الذي فيه أخذوه لرؤية عمة الواعظ، ذات التسعين عامًا، والتي لم تكن تتكلم سوى اللهجة الغالية، التي قام الواعظ بترجمتها أمامه. طلبت منه أن يغني لها باللهجة الويلزية، وكان "جاريث" قد سمع والده يغني، مرة أو مرتين، وتخيل أن غناء أبيه، لابد أنه قد أثر كثيرًا فيها. توقف لوهلة يريح فيها كاحله، ويستخدمه في ركل بعض من تلك العظام القديمة، التي تشبه القفص الصدري، وهي نصف مدفونة في الطين اللازب، يشتاق الآن بشدة لفنجان من القهوة؛ فقال لنفسه:"اللعنة على تلك البقرة"، هنا يميل نحو الأرض؛ ليقتطف أحد جذور الزهرة الهندية البرية، ثم يمد يده في جيبه يلتمس مديته؛ ليقوم بتقشير الجذر، ويعتصره في فمه؛ آملاً أن تطغى مرارة العصير على رغبته الشديدة في القهوة، يفعل ذلك بصورة آلية؛ يتحسس جيبه، ويدرك أن إصبعه الصناعي غير موجود مرة أخرى، يقوم بإخراج الجذر من القشر، ويستخدم ظفره في إزالة الأوساخ من عليه. يتذكر؛ وهو يمضغ الجذر المر مذاقه منذ طفولته، وحصته من الطعام وأخوته، حين لعبوا معًا في مصارف الحقول بجوار المستنقع، وكان يعبر تلك المصارف "الخنادق" في الزمن القديم، لكنها الآن جافة، وخاوية، ومحترقة........ وقد انتابته هذي الذكريات بقوة ؛ مصحوبة بذلك المذاق النفاذ، قادمة بوضوح شديد من أعماقه، فإن هذه الذكريات كالمشاعر تمامًا، تكمن تحت ظاهر الإنسان بدقة حقيقية، بوصفها المخزون الاحتياطي، الذي يرشف منه المرء، وقت الحاجة.

من السهل -كما يعرف- أن يأخذ الإنسان بظاهر الأشياء، مثلما يقوم المرء بغمر دلو في الماء، وهو مسيطر على نفسه، أو كما أنك تستطيع استدعاء، تلك المشاهد بكامل وعيك، ولكن عندما تطفو هذه الأشياء إلى السطح، دون استدعاء، ودون سيطرة من ذاتك، وقد أطْلَقَتْهَا من غياباتها؛ رائحة مميزة ما، أو خوف ما يتملكك؛ فلسوف يذهلك مدى عمقها، الذي كنت تخفيه طوال حياتك. يعلم أن ذلك قد وقع، حيث امتلك أبوه كرامته، وقدرته على أن يحب ببساطة وبعمق، من خلال مواجهته لكل هذا الهم العام داخله.

فإنه يعتقد أننا إذا ما امتلكنا الإحساس بالمأساة؛ لكان علينا أن نواجه الشعور بالهمّ العام. تمامًا مثل ذلك الطعم الذي يذكرني بلعبة الجنود، وليس بيدي إلاّ أن أعترف بحبنا الكلي للبشر وللآخرين، وإذا لم نكن بحاجة لمعرفة مدى عمق هذا الحب، إلا إننا نشعر بضوئه على السطح. وعندما كان والده شابًّا؛ تزوج من فتاة كان قد قابلها، وعاشا في سعادة مُقيمة، ووُلد لهما ولدان، وقد أدت واقعة البنك؛ إلى انتقاله مرة أخرى، وكان عليهم أن يغادروا ذلك البيت البديع، الذي كان جوار البحر -لكنهم مازالوا سعداء- وبعد شهور قلائل؛ وُلد لهما ابن ثالث، وكان طفلاً سليمًا، وذات يوم، قبل أن تعود للمنزل؛ أصيبت "ثيلما" -زوجته- بجلطة، وحاولوا إنقاذها لكنها ماتت، فتمزق عالمه بددًا؛ ولم يكن لدى "جاريث" أدنى شك، في أن هذه الحادثة هي مصدر قوة أبيه، في الشعور بالاهتمام للآخرين، وقدرته على أن يكون سعيدًا لأبسط الأشياء في أسرته.

حاول ألاّ يغرق في نفق الأفكار، الذي انفتح أمامه، كفم هائل يهدد بابتلاعه، وأن المأساة قد تشفيهم -أيضًا- مما هم فيه، وقد تزيح تلك المشكلات الدقيقة بعيدًا؛ إذا كانت ستحطمهم كالشظايا، فلا موضوع البقرة، ولا العجول الميتة، ولا سَفَر الابن؛ للالتحاق بكليته، ولا الأرض

التي تمناها، ولا حتى جسدها، غير المرغوب فيه، إنها الكارثة تلك التي يمكنها أن تجدد حياتهم، وتجعلهم يحصدون السعادة بقدر ما يستطيعون، وببعض الامتعاض؛ رأى أن والده كان محظوظًا بامتلاك هذه السعادة. انهالت عليه سيناريوهات الكوارث؛ فأغرقته، ولم يستطع صدها، كانت كأمواج العواصف، وسطها رجل في سفينته ببحر خضم، عليه أن يحاول قيادتها بأمان، ويؤكد لنفسه ضرورة ألاّ يؤمن بالقدر، أو أن يكون حذرًا فيما يأمله، فإن كلمات مثل:"أنا لا أقصد ذلك"، أو"هذه الأفكار ليست حقيقية"، كلها قبض هواء، لكنه الآن لا يستطيع إيقاف سيل الأفكار عن مهاجمته، ربما إذ ما كان وباءالبروسيلا، يتفشى في قطيع الغنم؛ لكان عليهم أن يعدموا هذه الحيوانات، وتلك ستكون نهاية الأمر، وبعدها يمكنهم أن يبدءوا من جديد، والإرهاق الناجم عن تكرار فعل نفس الشيء كل يوم، سيتغير كذلك، أو لو أن شيئًا ما حدث لواحد منهم؛ يُعيد علاقات التواصل بينهم قوية معًا، يمكن لشيء ما أن يعود للحياة بينهم، أو حادثة اصطدام سيارة ينجون منها؛ تعيد إليهم الوعي بقيمة الحياة.. أو ألمٌ سريع، ألمٌ جاهزٌ، يعيد تأكيد توازنات الرغبة، تأتيه الأفكار بعنف: إن ما يجب أن يحدث، يجب أن يكون لها هي؛لأن الآخرين يملكون القوة، والقوة مازالت مطلوبة لأولئك المستعدين دومًا، أو يتساءل لو أن هجومًا وقع عليه شخصيًّا؛ هل يُعيد ذلك التوافق بينهما؟! ويجعلهم يدركون مدى ما يمكن أن يخسروه... ربما سرطانٌ يعيش به !.

لكنه -في نفسه- يدرك أنه لو فكر في هذه الأمور، فذلك يعني أنه لا يملك القوة لهذا، ولو وقعت مأساة ما - فقط- هل يمكنه أن يعرف، إذا ما كان سيبقى شئ على الإطلاق؟ وكيف يمكن لإنسان أن يتمنى الإصابة بالسرطان؟ وفي الأسابيع التالية؛ سوف يشغله ذلك الأمر تمامًا، ويقول صوت داخله، ذلك هو الجبن البسيط، الذي يمزقنا جميعًا بالتدريج،

انهيار في قوة السطح الخارجي، عندما تنفد منك الأشياء، التي تخلق الرغبة داخلك، وعندما تفكر في كل شئ، وفي كل وسيلة لتغيير الأمور بدلاً من قبولها على عِلاتها. إنه يتمنى لو كانت كيت بحالة أفضل مما هي عليه، وأن تضحك، وأن تمشي - دونما ضرورة - تحت الشمس، أو أن تحبه - ببساطة شديدة- من جديد. وهذا في نهاية الأمر يتساوى مع غفرانها؛ لشعوره نحوها، ويظن أنه لا يجب أن يكون بهذا الشكل، وألاّ يترك هذه الأفكار السوداء تستغرقه، هذه السحابة الضخمة الدانية، الممتلئة باللامبالاة، وعدم الرغبة، فإنها هي العدو، الذي تجب ملاقاته؛ حتى النهاية.

الطَّـبيْبُ البَيْطَـرِيّ

انحدر الطبيب قاطعًا الممشى- في عربته الفان القديمة. وما كان يدهش جاريث -دائمًا- هو قدرة هذا الرجل الهادئ، على تحمل صخب قرقعات تلك العربة، ثم أدرك أن ذلك الطبيب البيطري الهرم يحمل تقديرًا عظيمًا للزمن، وكأن أمر استخدامه للسيارة، واستمرار قيادته لها؛ يُبقى هذه الفان على قيد الحياة، وما كان له أن يقايض عليها، بل أنه ليقوم بإصلاحها كلما تمكن من ذلك، وعندما يحدث أمر جلل - بصورة خاطئة- فقد يتركها كلية، وذلك ما منح "جاريث" إيمانًا عميقًا بتلك العربة الفان القديمة. كان الطبيب البيطري يعرف مقداره، ووضعه، وتقبل ذلك راضيًا، كان من الممكن أن يصبح طبيبًا؛ لكنه عرف - فيما بعد- تلك الأسئلة الدائمة للناس، وحاجتهم الملحة لمعرفة الأسباب، مما يؤدي لإرهاقه بشدة، وكان عليه أن يبتكر الأشياء، ويشرح كل ما يفعله، في حين أن كل ما يفعله -حقيقة- كان صادرًا عن غريزته، والحيوانات تقبلت ذلك ببساطة، هنا أطلق نفير سيارته مرتين. قفز جولشي- الكلب الصغير نحو العربة، وهو ينبح في اللحظة، التي خرج فيها هو من عربته،

بينما وقف كيرلي، على أقدامه بصعوبة، هازًّا ذيله في بلادة، وأخذت نحلةٌ ضخمة صاخبة، تدور حولهما. ووقعت عينا الطبيب على الكلب الهرم، وابتسم له بحزن ومودة، قائلاً: "أهلاً يا فتى" بهدوء شديد. دارت النحلة عدة مرات، وعندما اقتربت من الأرض؛ سحبت كورًا ضئيلة من التراب، وكانت تطن حولهم بلطف، هنا فكر الطبيب في نفسه: "إنهم يعتقدون - الآن- أن النحل يطأ الهواء، مثلما نطأ نحن الماء"، كانت النحلة تدور وتدور، حول المكان الصغير، بجوار الباب، وإذا استطعت أن ترسم خطًّا خلفها، فلسوف يبدو ذلك الخط كالأفعى الملتوية، بنفس نمط الحركة الهادفة للحيوان، وواصل تفكيره: "إنها تبدو فضولية، لكنها حشرات دقيقة في بحثها عن الأشياء". شعر بلمسة خفيفة من شئ ما على بشرته، داخلته رائحة متتالية من أريج الصابون، كانت "إيمي" تنفخ دائرة جديدة من فقاعات سائل الصابون، الصاعدة من لُعبتها، نحو الطبيب الهرم. هزّ كيرلي ذيله أكثر؛ عندما رأى "إيمي"، وبدأ السير نحو الطبيب. عندما سمعت "إيمي" صوت العربة، منحدرة نحو ممشى المزرعة، عرفت أنه هو، وبمجرد أن أطلت برأسها عبر الباب؛ أدركت أن والدتها نائمة، فانسحبت عائدة خارج المنزل

وقالت للطبيب: "أمي راقدة في السرير بسبب صداعها، وأبي فقد بقرة".

أجابها الطبيب: "إذن أنت المسئولة هنا؟".

فردت عليه بانحناءة سارة، وهي تعتقد أن النحلة تشبه الحوَّامة الهليوكوبتر.

كان هناك الكثير الذي يضاف لما قالته عن مادة النحو السيئة جدًّا، لقد أفصح قولها عن منطقها، لكون صحتها رقيقة؛ تعتقد أن أفضل ما يقوم به المرء، أمام أي ألم أو قلق - يشتد به- أن يذهب للنوم، لأن ما

يؤلمك سيذهب للنوم معك أيضًا وكل ما عليك فعله عندئذ، أن تنهض من النوم بهدوء شديد؛ كيلا توقظ معك هذا الشيء السيئ الذي آلمك، وتخرج من سريرك، وتتركه نائمًا، فلا يزعجك بعد ذلك أبدًا. ولم يكن أمام والديها خيار آخر أمام منطقها إلا قبوله، وغالبًا ما كان يفيدها ذلك، لذا لم يدققا في الأمر كثيرًا؛ بل تمنوا أن يصدقوه كذلك. كان هناك أمر؛ آثار انتباه "جاريث" دائمًا، ذلك هو الأسلوب الذي يكبر به أبناؤه؛ مصطحبين أمورًا خاصة بهم كلية.

سألته: "هل أتيت لمعالجة كيرلي؟".

آلم الطبيب؛ ذلك السؤال فعلاً، فتردد للحظة بشأن الكلمات التي سيرد بها، وعندما نظر إليها عرف أنه يجب أن يكون شجاعًا في إخبارها بالأمر. فقال:

"لا أظن أن بإمكاني شفاءه الآن، لقد أصبح هرمًا جدًا".

فقالت: "يجب أن نعطيه حمامًا جيدًا".

أصبح الكلب قريبًا جدًا من الطبيب، تفوح منه رائحة عفنة، واستطاع الطبيب أن يرى آثار البلل، وآثار عضة فأر سطحية على قدمه، تنز صديدًا وشحومًا، ما ذكره بقطعة اللحم الحمراء أسفل اللسان، في حين كانت رائحة الكلب منفرة، إذ كان ضعيفًا جدًا، لدرجة أنه لا يستطيع الإبقاء على نظافته، بل يتغوط على نفسه، ويتعلق الغائط في خيوط سميكة مدلاة بفروته. هنا شرحت إيمي الأمر للطبيب، قائلة:

"نحن نعطيه حمامًا بالخرطوم باستمرار؛ لكنه يعود قذرًا كل مرة، وأظن أنه يحتاج لقص شعره"، نظر الكلب بامتنان للطبيب، ملوحًا بذيله، إن مسألة قتل الكلب؛ ستكون صعبة بالنسبة إليه، لأن الكلب لم يبد عليه أنه قد قبل أن يكون موعد موته قد حان، وتمنى أن لو كان "جاريث" موجودًا، فهو يحترم أولئك الناس، ويحترم فيهم أنهم لم يطلبوا

منه أن يأتي لقتل الكلب، وقت فاحت رائحته العفنة، أو وقت ما بدا من مرأى هذا الورم الغريب فيه، يثير غثيانهم كلما رأوه. نظر الطبيب إلى النحلة، التي استقرت هذه اللحظة فوق زهرة الهندباء البرية، بياقتها الذهبية اللامعة، والبقع الصفراء، والبيضاء عند أطراف جسمها، وبدت كما لو كانت تزهو بنفسها فوق الزهرة البرية. لو أن الطبيب قد أمعن نظره عن قرب؛ لرأى أن جسمها أكبر من اللازم، وأنه أكثر دروعًا، ولها فراء ناعم قليل، ويعرف أنها تعيش في مستعمرات جماعية أقل عددًا من مستعمرات نحل العسل، التي تتكون من حوالي مائة وخمسين عضوًا، حيث تعتني الذكور والنحلات الشغالة بالملكة الوحيدة في الخلية، المقامة تحت الأرض، في حفرة فأر قديمة أو شيء من هذا القبيل، حيث يأخذون الطحالب والأعشاب إلى داخلها، ويقومون ببناء خلايا من الشمع؛ لتحتوي العسل والبيض. لو دقق الطبيب بصره أكثر؛ للاحظ أن هذه النحلة غير المنشغلة بأعمال النحل، لا تجمع بذور اللقاح من الأزهار في أكياس معلقة بأقدامها، إنما كانت من نوع نحل الزنبار، الذي يبدو مثل باقي أنواع النحل؛ لكنه ليس كذلك حقيقة، فإن هذا النوع يدخل خلايا النحل، الذي يشبهه فيقتل ملكتهم، وقد راقبت "إيمي" النحلة للحظات، إن هذه النحلات تضع بيضها في الخلايا، وتقوم النحلات الشغالة، برعاية بيضات نحل الزنبار هذي، حيث إنها تموت كلها في الشتاء؛ لأنه فصل الخواء، فقط تبقى نحلات الزنبار حيّة، في حالة بيات طوال الشتاء، وتصحو متأخرة كثيرًا، عن موعد صحو ملكات النحل ؛ تمنحهن خلال ذلك، وقتًا يقمن فيه ببناء الخلية الجديدة، لكن الطبيب لم يلحظ ذلك كله؛ لأنه كان مشغولاً بالكلب الهَرِم. قال:

"سوف أعطي كيرلي حقنة تجعله ينام".

فسألته "إيمي" -متفهمة كل شئ تمامًا: "وهل سيصحو؟".

فأجابها: "لا لن يستيقظ ثانية.. هل تريدين مساعدتي؟".

نفخ كيرلي، وكزّ أسنانه نحو النحلة، حينما كان صغيراً؛ اعتاد أن يطارد النحلات. أخذوا الكلب، إلى حيث اعتاد أن ينام، في ركن من فناء حلب الأبقار، وأرقدوه هناك، وكان كيرلي قد تتبعهم؛ فساروا ببطء لأجله، كان الأمر مؤلمًا، فكم امتلئ كيرلي بالأمل، وكانت نظرته للأشياء تمور بالحب على إطلاقه، ويبدو سعيدًا بها للأبد، تمدد على الأرض وسط القش ساعيًّا إلى النوم. سألت "إيمي": "ماذا يوجد في الحقنة؟".

ولم يشأ الرد عليها؛ إنها مسألة وحشية، لأنه مازال يذكر صورة الفتاة الصغيرة، التي تقود الكلب حول المزرعة من أذنه، منذ سنوات عديدة. ثم قال:

"إنه دواء سيجعل قلب كيرلي يبطئ شيئًا فشيئًا حتى يتوقف"......

ولم يكن بحاجة للتأكيد، على أن ذلك لن يؤلم الكلب، بسبب الطريقة التي قال بها ذلك الأمر. فقالت:

"مثلما يوقف الطقس المطر، لم يتأثر بشيء في عمره، أكثر مما يتأثر بالأسئلة الجميلة للأطفال".

فرد: "نعم.. مثلما توقف الدنيا المطر".

من بعيد؛ سمع "جاريث" صوت النفير؛ فعرف أن الطبيب البيطري قد وصل، فبدأ على الفور طريق عودته للمزرعة. كانت محاولة التحرك سريعًا عبر المستنقع -رغم جفافه- أمرًا صعبًا جدًا، وعندما سمع صوت عربة الطبيب يعود للحياة، وتحتك إطارات سيارته فوق حصى الفناء. عرف أن الكلب قد لفظ أنفاسه؛ فنظر خلال المنحدر، نحو بيت المزرعة، حيث شاهد الغبار يتطاير فوق الممشى وقد أثارته العربة القديمة؛ عندئذ استدار مرة أخرى، وعاد آيباً للمستنقع...

البَقَرَةُ

مضت البقرة بكسل شديد فوق الممر، بين صفي شجيرات الشوك. كان باستطاعتها سماع صوت العربة تأتي، ثم تذهب، لم تكن تحب المستنقع، الذي ظل لفترة طويلة، يمتلئ بالأشياء الخافية، تلك التي أحضروها عبر المخيمات الخشبية لمقاطعة ويسكونسين، والتي علم بشأنها والد "جاريث"، من القوات الأمريكية، التي خدم بها، ولا يهم مدى سرعتك في الالتفاف خلفك، ولا كم أضنيت نفسك بحثًا عنها، فإن تلك المخلوقات الخفية، تظل خلفك، لذا فإنه لم يستطع أحد أن يصفها أبدًا، إلا إن البقرة -وحدها- هي التي شعرت بهم، إذ بدأت تُجن قليلاً الآن، وتشعر أنها يجب أن تلد العجل، لكن جسدها لا يستجيب، لقد كان شعورًا غريبًا للبقرة، حيث بدأ تنفسها يخفق، وكانت تزفر بشدة عبر أنفها. استمرت في السير تحت الشمس، وكسرت السور هنا أو هناك؛ لأن الذبابات بدأت تدفعها بصورة سخيفة، وتحط على وجهها طوال الوقت، أصابها عطش شديد؛ فحاولت إيجاد الماء في ساعتها، واستمرت في السير...

الفَصْلُ الثَّـامِنْ

المَسْخُ

قـالوا أن هنـاك وحشًـا بالمسـتنقع، وألفّـوا حكايـات كاملـة، حـول حيوانات المنطقة؛ لإبعاد الأطفال عـن تلـك الأمـاكن الخطـرة، وإن كـانوا يروونها للأولاد بطريقة مسلية، لا تؤدي لتصديقها تمامًـا، حتـى أصـبحت لعبة، أمكن للأولاد لعبها بالبقاء بعيـدًا عـن تلـك الأمـاكن، دون جـذبهم إليها؛ إذا ما انتابهم الفضول الناجم عن الخوف، ولم يعرف "جاريث"، أن في مقدوره رواية تلك القصص؛ حتى جاء يوم أخبرهم بها، وذلك ما أشاع فيه السرور، أما هو فقد نمى وترعرع هنـا، وسُـمح لـه دومًـا بـأن يكـوّن معتقدات لنفسه؛ لأن الريف لا يمنع التظاهر في بعض الأمـور، بالطريقـة الشريرة التي تمارسها المدينة. كان الوحش في المستنقع يشـبه الكانجـارو؛ لكن بأقدام فيل، وليس له رأس الكانجارو، إنـه أشـبه شـئ بـرأس طويـل لأرنب، في حين يشبه وجهه، حشرة مسحوقة مُقرفـة، بعينيهـا الـدقيقتين، اللتين لا تفصحان عن شعوره، وإنما أسنانه فقط، هي التي تفسـح مجـالاً لإبـداء مشـاعره، ولسـنا في حاجـة إلى القـول بـأن الـوحش، كـان غـذاءَهُ

الأطفالُ. كالحية عاش في وكرٍ من الطين اللزج، لم يكن يشبه الحيّة في كثير، فهي خليط من الغُثاء والجلد، يتحرك منتفخًا مثل الدودة، التي سقطت في الوحل، كان في حاجة للغذاء طوال الوقت، عاشت على وجبات من البو المستحلب من البقر، وهذا هو السبب في إبقائهم على تربية البقر مع الغنم، وذلك لجمع مستحلب البو لهذه الحية، وهكذا أبقى على مزرعته، ومن هنا نجد أن إيمي هي التي ابتكرت نظرية، إنها تعرف أي الأبقار أكثر إنتاجاً للبو عن درها لـ اللبن، وذلك استنتاجًا من نسبة وجود البقع السوداء إلى البيضاء، على جلود البقر، وهم يضيفون إلى ذلك قولهم، إنه عليك ألاّ تقترب أبدًا من حفرة هذه الحية. كان "جاريث" قد حارب وحش المستنقع، واقتلع الوحش -حينها- إصبعه؛ حين كانوا يقتربون من المستنقع مع الأطفال؛ كان "جاريث" يريهم عظام، ورفات الحيوانات المتناثرة؛ كيما يدركوا حقيقة القَصص، التي يسمعونها. الجو الآن شديد الحرارة، ويقطر سخونة، فيقول لنفسه: "تلك البقرة اللعينة"، إنها لحرارة جافة، كما لو أنك تضع يدك، قريبًا من الحديد الساخن. أخذ يفكر بعمق في موضوع الكلب، وقد كان متأكدًا من أنه لم يجلب له الموت، إذ وقع هذا بفعل الزمن، وأنهم لم يقتلوا الكلب كيرلي، لأنه بدأ ينفر منهم، رغم أنهم حاولوا ألاّ يصرحوا بذلك، فإن الحيوانات يتم إنهاء حياتها من أجل "خاطر" ملاكها، وهو لم يؤمن أبدًا بأن الحيوانات يتكاثر لديها الألم كما يفعل الإنسان، وهو ـ كذلك ـ قد راقب الحيوانات، لفترة تكفي ليعرف أنها تقاوم الموت بشراسة، أو أنها تقعي أرضًا وتموت ببساطة. لقد آمن بالكرامة، وأنها حق في الحياة، وليس مجرد حق إنساني فقط، وعرف أن التخلص من كيرلي بموته، مسألة تتعلق بالكرامة. وتمنى ألاّ تحزن إيمي بشدة، متأكدًا أن "كيت"، سوف تشرح لها هذه الأمور بلطف؛ أثناء وجود الطبيب هناك؛ لكن "كيت"

نامت، حيث يقوم النوم بتغيير آلامها، ذلك الألم الـذي يشـبه بـرادًا إنـاء، يمور بالماء المغلي، يحوله نومها إلى بخار. فكرت في إصبع "جاريث"، وهـو يلمع كالدمل البثرة، الذي تم شفاؤه، وفكرت في: أكتافه، وأربطة ذراعيه، وشعره الخشن. مقارنة بجسدها؛ فقد أحبت جسـده كثـيرًا، كـما أحبـت الضـآلة الشـديدة لجسـد ابنتهـا، وأكتـاف ابنهـا العريضـة، إنهـا أحبـتهم فيزيقيًّـا وطبيعيًّـا؛ بوصـفهم أشـياء، في حـين أنهـا لم تسـتطع أن تحـب جسدها. أثناء نومها؛ فكرت في ابنها، يقضي حياتـه بأسـلوبه، وفي ابنتهـا، تنمو لتصبح أكثر جمالاً، وأكثر تعقيدًا، مثل صورة مـن صـورها العديـدة، بينما تضيف إليها الحياة الكثـير، وفكـرت في المزرعـة، وهـي تتغـير -هنـا شعرت بالصداع، آخذاً في الانقشاع.

دِيْلاَن

لم يجد "ديلان" - حال عودته- "إيمي"؛ بينما وجد أمـه نائمـة في سريرهـا، كان ذلك بعد فترة من وجود الطبيب؛ لكنه لم يعلم بموضـوع الكلـب، و لم يصدق أن والده مازال يبحث عن البقرة. عندما عـاد إلى المزرعـة؛ قـام بفتح هاتفه المحمول، بعد قيادة عربتـه ؛ وجـد أن عليـه الحصـول عـلى أنبوبة غاز، إذ إن ذلك الوضع، سيحرمه من عمل الشاي –حيـث إن أمـه نائمة، مع عدم توفر الغـاز؛ فلـن يكـون أمامـه سـوى بعـض مـن الجـبن، وبعـض الطعـام والخبـز، لـذا فـإن عليـه أن يـذهب لإحضـار الغـاز يـوم السبت؛ ولأجل أن الوقت كان صيفًا، وهناك العديـد مـن المخـيمات غـير المغلقة؛ سيكون أمر الحصول على الغاز إذن مطلبًا سـهل المنـال، أو عـلى الأقل الحصول على أنبوبة صغيرة منها. لكنـه لم يفكـر جـديًّا في المسـألة؛ لأنه لم يرغـب في الخـروج ثانيـة، وجلـب الغـاز. عـلى الممشى؛ رأى أسرة كاملة من ابن عرس، تلعب وسـط الرمـل، كـانوا بطـول يـده: يتقـدمون، ويتلوون بحرية فوق المـدَق، وبـين الفينـة والأخـرى؛ يهـاجمون بعضـهم

بعضًا، رافعين قوائمهم، متطلعين فيما حـولهم، يتقـافزون أمـام الـذبابات العابرة، أو فوق رؤوس الأعشاب. أخذ يراقبهم؛ متسائلا:

"إنـــه مـن الصـعـوبة بمـكـــان، معرفـة قـــدرة هـــذه الحيـــوانات على قتل
كائنات أخرى، أكبر من حجمها".

يعرف أن عليه أن يسـاعد، في البحـث عـن البقـرة، أو أن يجـد إيمـي ليلعب معها، لكنه شعر – في نفسه – أنه لم يشهد أي جـزء مـن أحـداث ذلك اليوم، لقـد ذهـب لزيـارة أصـدقائه طـوال اليـوم،..... وعنـدما قـاد سيارته، عائدًا للمزرعة؛ انطلق سرب الحـمام، مُحلقًـا بعيـدًا عـن الفنـاء؛ عند تصاعد صوت سيارته، ودخل المنزل، يستطيع -بالكاد- القول إن ذلك يوم قد مضى. التقط مفاتيح سيارته؛ لشعوره فجأة بالاغتراب، فعـاد مـرة أخرى خارجًا، خلال أعوام قليلـة؛ سيشـعر بالرغبـة في العـودة للمزرعـة، لكنه في هذه اللحظة، ترك مذكرة على المنضدة، تقول: "خرجت؛ آمـل أن يكون كل شئ على ما يرام".

الحمَــامات

وبينما يشق طريقه، طارت الحمامات عالياً مرة أخرى، فبدت - لبطء حركتها الغريبة فوق الأرض مقابل طاقتها الحيوية الزائدة وهي في الهواء - كما لو كانت من كائنين مختلفين هدفاً ونوعاً، وتبدتْ الحمامة البيضاء بينهن مثل الزهرة الوديعة، تساءلت الأسرة: هل يمكـن لتلـك الحمامـات أن ترحل يوماً، وأن تسافر فجأة ذات يومٍ معاً كما جاءت معاً، وكانوا قـد شاهدوها هي تتقافز تتمايل تحت أشعة الضـوء.

توجـد في خلايـا الحمامـة، هنـاك في مكـانٍ مـا مـن رأسـها، بللـورات مغناطيسية دقيقة وحيّة، تمثل جزيئات رقيقة من خام الحديـد المسـمى ماجنتايت في شـكل هبـاءات صخرية غـير مرئيـة أدق مـن ذرة الـتراب،

تصنع لها بوصلة تتحسس بها الاتجاهات القطبية، وتتلمس من خلالها ميول الحقول المغناطيسية حول الأرض.وتقوم الجسيمات الكهربائية في تلك البللورات، والمتحركة بين أيونات مختلفة داخل ممرٍ مركبٍ يؤثر على المادة المغناطيسية، بإرشاد الحمامات إلي طريقها الصحيح. وتوجد هذه البللورات في رؤوس النحل أيضا. بل انهم اكتشفوا جزيئات الحديد هذى في قوقعة آذانها الداخلية وهي التي تمنحها الإحساس بالمكان وهي تطير في الجو أو في الفضاء الذي يسبحون فيه، ولو اضطربت مغناطسيسة الأرض - للحظة- لضلوا الطريق جميعاً وهذا ما يدفعك للتساؤل: ترى ما هي البللورات التي تسري داخلنا؟ وما نوع ذرا ت الملح تلك فينا؟ لأن هناك شيء ما داخلنا يمنحنا الإحساس بما يجب أن نكون فيه ! هذا إذا أنصتنا لصوته... أيضاً.

العُشُّ

في طريق عودته للمستنقع؛ حاول "جاريث" أن يفكر في أمور أخرى، غير موضوع الكلب؛ لذا فإنه قد فكر في أمر الأرض، التي يرغب في امتلاكها، وكيف أنه سيحاول بنفسه بناءها، أو حتى بيع تقسيماتها. وقد تم تدبير مصدر التمويل؛ استرشادًا بدليل الأسعار، لكنه علم أنه لا يجب أن يبدي لهفته، ولا أن يذهب به الحلم بعيدًا؛ فإن سعر الأرض قد يصل إلى مدى، أكبر من اللازم. حاول تركيز تفكيره بشأن الأرض؛ لكنه واصل التفكير في سخونة الجو، وفي كيت، وفي أمر الكلب. أفكار مجسدة كالصوت تمامًا، في جسم كيت الأبيض، فإن الزمن يُغير الأشياء، ويقبل بتغير جسمها تمامًا، كقبوله تغيّر المشهد الطبيعي حوله. إنه يعي أن اهتمامه به -الآن- يفوق رغبته فيها، و يعرف أنها تشعر بذلك، على أنه افتقار إلى جوع الجنس،.... و ربما يكون ذلك مختلفًا، في خبيئة كل منهما، فإنه يعتقد أن هذه الأمور، تختلف عند الرجل؛ فلو أنك تشتاق

لامرأة ما، لكان ذلك بسبب أنـك؛ تشـتاق إلى النسـاء بشـكل عـام، لكـن يمكنك أن تهتم بامرأة واحـدة فقـط. لأجـل شراء أرض في مـزاد؛ يتوجـب عليك أن تحصل على دليل المزاد، ورقـم المعـروض للبيـع اللـوط، وتقـوم بعمليات البحث والمسح، لما تُقرر شراءه بنفسك. لم يقم "جاريث" بمسح الأرض، ودخل في جدال شـديد مـع "كيـت"، بخصـوص ذلـك، قـائلاً: "أنـا أعـرف الأرض إنهـا شـبيهة بأرضـنا، فقـط هنـاك طريـق واحـد بيـنهما"؛ مستدركًا: "يجب أن توفري كل مصـادرك لتمويـل المشروع". وتُسـتكمل الأبحاث، وعمليات المسح قبل المزاد، وبمجـرد رسـو المـزاد عليـك؛ تـرتبط بعقد لشراء تلك الأرض. كما أنك يجب أن تبحث، عن موافقة المسـئولين، على تخطيط وتقسيم الأرض، لدى الإدارة المحلية، لكن "جاريث"؛ لم يكن لديه أية موافقات في هذا الصدد، لأنه يعلم عدم وجـود خطـة للتقسـيم بعد، ويعرف كيف تنتشر الأفكار بسهولة في هذا البلد، و يأمل ألاّ تـراود هذه الفكرة؛ أحدًا آخر. أثنـاء انتظـاره لقـرارات خطـة التقسـيم؛ سـوف يستغل الأرض في الرعي، ومع زيادة المساحة؛ يقوم بزيادة عـدد أغنامـه، ولسوف يسدد المشروع بهذا الأسلوب تكاليفه؛ قالـت لـه "كيـت": "إنهـا فكرة مجنونة"، حين يتذكر قولها هذا؛ تنتابه نوبـة الحُكـاك مـرة أخـرى، فلربما تكون مجرد فكرة مجنونة، وأخـذ يفكـر: "مجـرد فكـرة مجنونـة". يجب عليه أن ينظف تلك الأحـراش، ويسـتغل هـذه الأرض، وهـو يقـرر ذلك دائمًا؛ كلما جاء إلى هنـا، وكـل أحلامـه التـي لم تتحقـق بعـد؛ تشـبه الأحلام، التي يخطط لها المرء، مع من يحب، ولا يكتب لها التحقق أبـدًا، ويقول في نفسه:"انزع النباتـات الضـعيفة، والمريضـة؛ ودع الأرض تجـف سريعًا، وستصبح المسألة، كمن يكتب مذكراته، يقـول في نفسـه: "و ذلـك باختيار ما يجب أن يبقى ليحصـل عـلى مسـاحة كافيـة؛ لـكي ينمـو مـن جديد، وأشجار الصفصاف، تنمو سراعًا، والجـذور - التـي قـد تظـن أنهـا

تشرب الماء- لا تفعل ذلك. فهي تحجزها داخل الأرض؛ محولة الأرض إلى مستنقع. وإذا اقتلعت الأشجار؛ فإن الأرض تموت جفافًا، و يبدأ الماء في التسرب بعيدًا، الآن؛ هو الوقت الملائم لهذا العمل، خاصة أن المستنقع قد جف بالفعل. يمكنه الحصول على بعض من الحقول الجديدة بعد سنوات من الآن، يا لهذا المستنقع، وذلك العفن، وهذه الظلمة وآثارها على المرء، و يستمر متأملاً، إننا لن نفقد الأبقار بعد ذلك، يشعر بالغضب لأنه لم يحضر لحظة وجود الطبيب البيطري، ذلك المستنقع اللعين؛ يفقدك الإحساس بمكانك، أنا أريد من كيت أن ترغبني، لكنه فجأة -مثلما يضئ النور المسافات-يدرك ما يجب أن يفعله، يعرف ذلك جيدًا و بوضوح، إن ما يجب عليه فعله هو أن يسير، فقط أن يسير، وأن يمضي قدمًا بعيدًا عن كل ذلك، يسير و لا يتوقف أبدًا. يبتلع غضبه؛ قائلاً في نفسه مرة أخرى: "إنها سوف تكون مجرد مرحلة، و مجرد تغيير، ولم أقصد أبدًا تمنى هذه الأمور، التي فكرت فيها من قبل". فيما هو يفكر ؛ يجد أمامه المكان الواسع المريح، الذي صنعته البقرة لنفسها، ولمّا كانت البقرة غير موجودة في المكان؛ فإنه لم يعد في استطاعته البحث عنها، أكثر من ذلك، وأخذ يفكر: "إن كل ما يجب عليّ فعله، هو أن أستمر في السير، حيث إني لا أملك إلا إمكانية الذهاب، الذهاب فقط".

الجَــرَّارْ

كان الجرار موجودًا بالمزرعة؛ منذ أن وصلت أسرة "جاريث" هناك تقريبًا؛ وعندما اشتروه كان جديدًا. كان "هنري فورد"، قد أجرى محاولات مخفقة، تعود إلى عام ١٩٠٧م؛ لتصميم جرار، يستفاد به في الزراعة،ثم آب إلى تلك المحاولات مجددًا؛ عقب نشوب الحرب، عام ١٩١٥م، بجهود أكثر تركيزًا، تُدعمها مبادئ فورد للإنتاج الكلي، حيث إنه كانت هناك حاجة هائلة، لإدخال الآلات في الأراضي الزراعية؛ بسبب

ذهاب العديد من الرجال، والجياد إلى معمعة الحرب. و في عام ١٩١٧م؛ بدأ إنتاج موديل: فوردسون ف، يستجيب – بمفرده- لاحتياجات حكومة بريطانيا العُظمى، وخلال عشر سنوات؛ تم بيع ثلاثة أرباع المليون من وحداتها.مذ بدأ الجرار الأول - وبعد ذلك- كان الجرار فوردسون؛ أكثر تصميمات الجرارات، تأثيراً في تاريخ هذه الصناعة، ولم تصمد أمام منافسته؛ سوى أشد أنواع الإنتاج الأخرى صلابة، في معرض "سميث فيلد"، عام ١٩٥١م، وهو العام الذي غادر فيه والد "جاريث" البنك، وفيه كشفت شركة فوردسون، عن إنتاجها الجديد باسم: ماجور إي ون أيه، المزود بمحرك ديزل، سهل التشغيل، صلب، ومقتصد في استهلاك الوقود؛ لذا أنهى وجود الجرارات، التي تعتمد على محركات رذاذ البنزين، وبرغم ذلك، ظلت الحاجة لجرارات، و آلات أصغر، تتزايد؛ حتى عام ١٩٥٧م؛ فقد أطلقت الشركة، موديلها المسمى: ديكستا. ولدى "بيل" واحد منها، إذ إنهم قد احتاجوا إلى جرار أكبر حجمًا في المزرعة. كان لديه موديل، من نوع ماسي منذ سنوات قبل ذلك، أول ما فعله ذلك الجرار؛ هو بتر إصبع "جاريث"، كما لو كان الحيوان، الذي لم يتم ترويضه بعد. قبع الجرار الفوردسون، تحت مظلة الحظيرة ؛ زمنًا طويلاً وهذا المكان بناه أخو "جاريث" لممارسة هواية إصلاح سيارته،وإصلاح آلات المزرعة وهذا الأخ، يمتلك "جراجا" الآن في شمال البلاد، وفي الشتاء كانت كريات الجليد الطويلة - التي كانوا يستخدمونها في الشرب واللعب معًا- تتدلى من سطح تلك المظلة، لكن حرارة الجو السائدة هذه الأيام؛ قد تجعل تخيلك لوجود وحيد قرن، أيسر من تخيلك وجود كريات الثلج هذي. وقد بهت لون الجرار الأزرق اللامع، وسقطت قشوره، وأصاب حديده الصدأ؛ لدرجة أنك تستطيع اختراق سطحه بإصبعك، وكأنها قطعة من الكيك، لكن يظل للجرار شخصيته المميزة، فقد يلعب الأولاد فوق

مقعده المتهالك، ويتقافزون...... وهـم يتظـاهرون بقيادتـه، وقـد رغبـت "إيمي" في منحه حمامًا لتنظيفه. عندما سيطر - فجأة- عليه عقله، تطلـع "جاريث" للجرار، و ربما أقر بأنه مازال بحال جيدة و قويـة، و يجـب أن يعود للعمل، مثل الشخص القوي، الذي عليه أن يعمل. لـذا أعطـاه لــــ "بيـل"، الـذي سـاعده في تنظيـف ذلـك الجـرار مـن جديـد؛ لأن موديـل الديكستا، كان آخر تصميم، يحمل اسم فوردسون؛ لذا فإنه سـيكون مـن العار، أن يتحول إلى هيكل حديدي، فوق تلك الأرض. دار "بيل" بـالجرار إلى الأمام، وإلى الخلف؛ محاولاً حرث التربة، بمشط تمهيد التربة المشـلفة، كان قد رأى الطبيب آتيًا، ثم مغادرًا، و تمنـى ألاّ يكـون قـد حـدث لأحـد مكروه. لوّح بيده للطبيـب؛ لأنـه كـان يعرفـه، و رغـم أن الطقـس، كـان شديد الحرارة؛ فقد كان "بيل" يرتدي نفس الملابـس، التـي كـان يرتـديها دومًا، وكـان العـرق ينبثـق غزيـرًا مـن جسـده. كانـت البقـرة الآن ؛ قـد وصلت إلى حافة الجنون، بسبب الذباب، وثقل حجـم العجـل في بطنهـا، وكذا تلك الحـرارة الملتهبـة بـلا توقـف للشـمس، وقـد أطلقـت نعيرهـا؛ صارخة من شـدة العطـش. تراكمـت حـرارة النهـار عـبر الـتلال، وكانـت مجهدة؛ لاضطرارها السير بطريقة معينة، بسبب ثقـل العجـل في بطنهـا، أرادت أن تـرفس، وأن تقفـز كـما لـو كـان ذلـك سيخلصـها مـن حـرارة الشمس. أضحى الوقت مساءً؛ لكنه مايزال حـارًّا؛ فبـدت حُمـرة جلـدها مُذهبة، تحت الشمس.

كانت تسير قدمًا، محاولةً الوصول إلى غوّر ماء، وهي تفكر في نفسها: "لسوف أمضي قدمًا لفترة، لكنني أستطيع الرقاد والنوم ههنا".

لكنها لم تعرف أين تكون الآن، كان لها رأس غريبة مهتزة، أشبه برأس المعتوه، وكانت تفكر في أن تصدم نفسها، بضفة النهر الجافة، أو السـور؛ حتى تفقد إحساسها، وتفلت من ألم تلك الحرارة العالية، واندفعت دون

تبصر؛ نحو ألـواح الصـاج المتموجـة للسـور، التـي انحنـت بفعـل ثقلهـا، ووصل إلى سمعها صوت الجرار ؛ فأطلقت صيحة ناعبة، وسـقطت فـوق السور، محطمة إياه، كانت ألواح الصاج، معرضة طوال النهـار للشـمس، وكانت شديدة السخونة، تحت ضرعها، وكانت تلـك هـي اللحظـة، التـي وجدت فيها "بيل"..بينما تقول كيت لنفسها [وأنا أتساءل أيـن هـو الآن؟ وماذا بوسعي أن أفعل إذا ما تركني، وإذا لم يعُد؟،أو إذا ما قرر الرحيل؟. كان يجب عليّ، أن أبحث عن البقرة، وأن أكون بجواره، فلربما كان الأمـر لطيفًا معه تحت الشمس؛ فأنظر إليه، وأعلـم أني كنـت محظوظـة، لأنـه رجل صالح، وأحبه كثيرًا، لكنه يشـعرني بالغثيـان، فـما حيلتـي؟ وأحيانًـا، عندما أشعر بيديه حولي؛ كل ما أفكر فيه هو ذلـك الأمـر الآخـر، وكيـف كان ذلك ممتعًا أثناء حدوثه، والتفكير في هذا -أيضًـا- يشـعرني بـالقرف، ورغم أني أعرف أن المرض قد يصـيب الرجـل دون أن يـدري؛ فـإني أفكـر أحيانًا في المرض الذي يصبه في جسمي كل مرة نتعاشر فيها، وأنـا أكرهـه بسبب ما فقدته من أطفال، لكن من دونه ؛ أنا لا أستطيع مجرد التفكير أن أكون ههنا.

الفَصْلُ التَّـاْسِعُ

زُهُوْرُ الهِنْدِبَاْءِ البَرِّيَّةِ

ركع بجوار الكلب؛ وضرب يده عبر فروته السـميكة، كانـت الطريقـة التي يرقد بها صعبة الاحتمال، وينظر إلى الجرح البليغ على قدمه، الـذي وضع الطبيب فوقه بعضًـا مـن مسـحوق العـلاج؛ لإيقـاف أنـين الكلـب، أفزعه حجم الورم، الذي بدا كما لو كان كائنًا به حياة، ومازال ينمو فوق جسمه؛ وهو لا يتحمل لمسه، يراه شيئًا هائلاً، التصـق بالكلـب ليسـقطه

جثة هامدة، كان مرعبًا - بالنسبة إليه- أن ذلك الورم قد أتى من داخل الكلب، وأخذ يقول برقة:

"هناك أيها الولد.."

ثم يرى "إيمي"، تحت ضوء الشمس، بجوار مدخل الباب. يراها طفلة صغيرة، ترقص فوق العشب، تظل تدور، وتدور في وهج الشمس، وبيدها زهرة الهندباء كالساعة، ناثرة بذورها حولها. إنه يسمعها تثغو، طوال السنين الماضية. و يرى ذلك الهدوء الشامل والهائل، الذي تنثر ابتسامتها من خلاله. تأتي إليه عابرة، وتلمسه بغريزة قطة؛ تلعب بقطعة من الورق، قائلة:

"إنه بحال جيدة..".

فقال لها: "إنهم أنهوا حياة كيرلي".

دخل الحجرة لتوه، وتوقف لبرهة قصيرة؛ وقال ببساطة شديدة:

"لقد أنهوا حياة كيرلي".

ثم توقف فترة أخرى سريعة وخرج؛ لأنه لم يعرف ماذا سيفعل. تجلس على جانب السرير، وتقبل فكرة أن الصداع قد اختفى.مشهد مرضها؛ ينتشر حولها: كوب الكاموميلاالممتلئ إلى نصفه،....وحبات الأسبرين، وبقايا الماء، مع مجلة تُركتْ مفتوحة بإهمال، على أرضية الحجرة، بجوار السرير، والستائر القاتمة المُسدلة، وزجاجة الماء الساخن، التي ركلتها بعيدًا؛ بسبب سخونة جو ما بعد الظهر، ذهب الألم الآن؛ وهي تتساءل بتعقل واضح:

"إذا كان ذلك حقيقيًا؟ فمن الصعب استدعاء الألم، عندما لا نكون في دائرته؛ لأننا نتذكره بغموض شديد، ونبث فيه الحياة – رسماً- بوصفه مخلوقًا تقريبًا؛ بأن نضفي عليه صفة مُدققة".

يبدو أن لهذه الأشكال من الصُداع؛ أسلوبان يؤديان لانهيارها، أولها: تلك النقطة الطرفية الحادة لليوم، التي تجعل الأمر، كما لو أنها تستطيع معرفة العالم، فقط من خلالها، وكأنها تنظر من خلال طرف دبوس صغير. وثانيها: الثقل، إنه حِمل ثقيل كالطين؛ ذلك الشعور الأولي الكئيب الموجز، الذي ينتابك عندما تصطدم رأسك بشيء ما، وتبقي بهذا الوضع، مخدرًا دون حركة، وثقيلاً حتى يبدأ في التداعي مثل صخرة، تطل على الشاطئ، وتنحدر على جانب واحد من جسدها، في انهيار ثلجي بطئ من الألم، ثم تبدو كلها عندئذ في طريقها للرّواح.

نِهَاْيَةُ الذِّكْرَياْتِ

يصب "جاريث" لنفسه كوبًا من الماء؛ وينظر من النافذة التي تعلو الحوض، فوق القش المتناثر، ومزاود الطيور، و التراب الموجود، في المساحة الصغيرة بالخارج؛ قبل بداية المرعى، ومأؤهم يأتي من ينبوع مجاور، يسيل باردًا حتى الآن. خلال بضعة أيام؛ سيصل "جاريث" لنهاية المذكرات، التي تنتهي بذهاب والده للمزرعة، ولسوف يتساءل في نفسه، عما إذا كان والده، قد علم بإصابته بالسرطان -في وقت ما؛ لذا فقد نحّى كل الأمور، واختار -فقط- أكثرها أهمية. سوف يبدو الأمر غريبًا أمامه؛ أن تتوقف الذكريات، عندما انتقلوا للمزرعة؛ لأن ذلك -في الواقع- حيث تبدأ ذاكرته هوفي الحضور، وسوف تنص البداية، على قوله: "هكذا في عام ١٩٥١م؛ غادرت المصرف البنك، وذهبت لاحتراف الزراعة.. وإن هذا ما اعتبره العديد من زملائي، عملاً أحمق، واليوم أقر بأن هناك جزءًا كبيرًا من الحق في أقوالهم. لكنني وسط أيامي الأخيرة؛ لا أشعر بأي أسف لما قمت باختياره، وقد توافقني في ذلك زوجتي وأولادي، ثم ماذا هنالك من آخر في الحياة؛ غير إتباع الطريق، الذي يجلب لك المتعة والاهتمام، دونما حساب للتكلفة أو الخسارة، ماذا

هنالك سوى الاستمتاع بتلك الأشياء، التي نرغبها، والتي تمنحك السعادة". "جاريث" هنا، يتمنى كثيراً الحصول على تلك السعادة، وهو يفكر في نفسه، قائلاً: "تلك الأشياء اللعينة.. تلك التفاهات القذرة ".

عُصْفُوْرُ السُّوْرِ

مر ذلك العام، وفي هذه الرقعة من الأرض، و داخل باحة المنزل، كان عصفور يأتي كل يوم؛ ليأكل بقايا الخبز، وقطع البندق المتكسرة، ونفايات الدسم، الساقطة من مزوديّ الطائرين، المُعلقّين بشجرة السوقم، القريبة من سور الشجيرات، كان يبدو من ناحية عصفورًا مكتملاً، ومن ناحية أخرى، يمكنك أن ترى فقاعات نامية مثل مجموعات من الملح على منقاره وعينه. كان صاخبًا ورقيقًا؛ وإن ظل غريب الشكل، وقد أتى بعد أن ذهبت الطيور الأخرى، وقد لا يكون هنا،العام القادم. يستدير وبيده الكوب البارد، " كيت" موجودة هناك: "لقد قمت الآن". وهي ترتدي ثياب نومها، وتحمل قطعة القماش المبللة، التي كانت تضعها فوق رأسها. تقول:

"أنا آسفة".

تقولها بطريقة من لا يعتذر، و إنما سؤال مجرد.

" الآن قد نهضتِ و إيمي كان عليها أن تتعامل مع الكلب ".

"نعم.. لقد أخبرتني"

ظن أنها لم تعي كلامه؛ تنظر،ثم تقول: "صداعي"

إذ ما تزال تشعر بهشاشتها، مثل صمام من الزجاج، يردد مرة أخرى:

"إيمي، كان عليها أن تتعامل مع الكلب".

وقفت مكانها، متوردة الوجه ذابلة؛ ظن أنها تبدو ضعيفة، وذلك ما دفعه، إلى أن يكرهها في تلك اللحظة بالذات؛ لأنه لم يصدق ما يرى.

قال لنفسه: "ما مدى عدم رغبتي فيك الآن".

"لابد أنك قد استدعيت الطبيب البيطري، صباح أمس".

يكظم غيظه ؛ لكنه يشبه صلصلة عجلة، قادمة من بعيد:

"لقد كنت في البنك المصرف في الصباح".

"نعم و هذا حلمك"، وكانت شريرة جدًا؛ وهي تنطق لفظة حلم.

"لم أجد البقرة".

وظلا صامتين، يجلس بجوار النافذة،ويشرب زجاجة المياه، كان غاضبًا منها؛ لأنها مكثت في الفراش، أثناء قيام الطبيب بقتل الكلب. بدأت تفيق، وتتحدث متأثرة بتنفسها المتقطع، الذي شكل إيقاعًا خاصًّا لحديثها، مثيرة عواصف من الجدل وراءها.

"أنا لست عبدًا لهذه الفكرة يا كيت". فهي تذكره بالأرض.

"كان لابد وأن يموت بالأمس..الكلب ".

أخذا يُبعدان ذكرى الكلب -بالفعل- وذلك بعدم ذكر اسمه:

"وعليك أن تبني فوق أرضنا".

وهو ينظر إليها؛ قائلة: "إنها أرضنا".

"بيل يستخدمها".

"إنه ضعيف يا جاريث، ولا يفعل شيئًا".

"لقد أعطاه والدي هذه الأرض، ولن آخذها منه".

"نستطيع أن نبني هناك العديد من المنازل ".

"أرض لا نستطيع تمويلها"؛ يقولها مستشعرًا طعم السم في فمه.

"البنك سوف يقدم قرضًا".

"وماذا لو لم يمنحونا التقاسيم؟".

يأخذه التفكير: "يا الله.. يجب أن أرحل فقط من هذا المكان، وإذا وجدت لغضبي متنفسًا؛ لكان ذلك بمثابة الماء البارد".

ترى التغيير عليه؛ فتُغير مجرى الحديث مستخدمة ضعفها. تقول في إعياء: "أنا فقط قلقة.. فقد يكون ذلك ضارًّا بك.. إنني أهتم بشأنك".

العِــــرَاْكُ

يقول: "أنت تستخدمين الاهتمام بوصفه سلاحًا.. وهو كالصوبة الزجاجية؛ حين تأخذ في الانهيار". بعد عراكهما هدآ ؛ فقال: "عليّ أن آخذ سلال الخبز وأعيدها"، وانطلق يقود السيارة.. يدخل "جاريث" من الباب الأمامي، ويضع المشعل على الرف في البهو، تقول له: "لقد أحضر- بيل البقرة"، وحاولا أن يتحادثا سوية. رأى "بيل" البقرة؛ فأوقف الجرار، وذهب لمعاونتها، كان له -دائمًا- طريقة هادئة، في معاملة الحيوانات، رآها متثاقلة، بحملها الكبير؛ فساعدها على الخروج من السور؛ حيث كانت قد انحشرت، بين ألواح السور الحديدية المتموجة، خرجت أولاً بمؤخرتها من السور،وضرعها الضخم، ملطخًا، ومشوهًا بالدماء، مثل بالون ممتلئ بالدماء، لهثت، ونفخت عبر أنفها، حتى في هذه اللحظة، ولكونها بقرة؛ فقد التفتت جانبها، وجذبت لسانها، ممتلئًا بحزمة من الأعشاب في السور، تفحصها "بيل"، وهي تمضغ الحشائش الطويلة، وعندما شربت كثيرًا وبشدة من الدلاء التي أحضرها "بيل" من بِركة الماء؛ نهضت على أقدامها، وانطلقت لمسافة قصيرة، حيث عاودها الإحساس بالجنون، رفست، واقشعرت؛ لكن "بيل" خاطبها بلطف، وفي الحال خفضت رأسها نحو الحشائش، وحكت أنفها على سطح التربة، وبدأت تتبع صوته، وأخذ "بيل" في الحديث والهمهمة، وتحركت البقرة البطيئة وراءه، واقترب اليوم من نهايته سراعًا؛ وذلك بغروب منتشر وبديع، كما لو كان غاضبًا لنهايته، في حين كان المساء جميلاً، مع البحر المتلألئ، والشمس تضئ - نوعًا ما- وراء التلال البعيدة. كانت مسيرة طويلة ذلك اليوم، بالنسبة للبقرة، لكنها عادت للمزرعة، وكانت هي و"بيل" معًا، في

الفناء؛ عندما رأتهما كيت، بينما العصافير تطـير عـلى مسـتوى مـنخفض، بسبب تغيّر ضغط الهواء، وكان "بيل" يربت على البقـرة، وينظفهـا، وقـد تناثرت منها الأتربة مساءً؛ ليقول بيل: "ياله يوم حار.. يوم حار".

الفَصْلُ العَـاْشِـرُ

الأَرْضُ

إنه لا يسـتطيع النـوم كثـيراً؛ بعـد ذلـك العـراك. ترقـد هـي بجـواره، متوترة، وفق الطريقة التـي تنتابهـا مـؤخرًا، عنـدما تكـون نائمـة. انعقـد طرف الملاءة الرقيقة، فوق فمها بعقـدة محكمـة، وبـين الحـين و الآخـر؛ يقفز ذراعها، أو تتنفس بحدة، و يبدو الأمر كما لو كانت خائفة، وعندما تكون نائمة يصعب النوم بجوارها. حصل على نوبات متقطعة من النـوم، ولم يكن كافيًّا ليدخل حالة النوم الصحيح، وبدا الأمر، كمـن يقـوم بفـتح عينيه -صدفة- على فيلم عنيف، كان هناك كابوسٌ خاطفٌ، فئران تهاجم وجه الكلب الميت، وتسلبه: عينيـه، ولسـانه، وتفـتح ذلـك الـورم الكبـير؛ فتنسـاب منـه خلايـا رماديـة مريضـة. يـنهض، ويلـبس سرو الـه القصـير، والجينز القديم، ويلقي على جسده بــ التي شيرت الحـديث. فـإن عقلـه شديد الانشغال، ولا يمكنه تحمـل التفكـير في كـيرلي؛ وهـو راقـد في كـوم القش؛ بجوار عجلات الجرار القديم، وأجولة السماد، والآلات الخربـة. إذ أن التفكير في كلبه الهرم؛ كـان يطـيح بكـل شـئ آخـر، خـارج ذهنـه، ولا

يستطيع -وقتها- التفكير في العراك، أو حتى في الصياح بوجهها، ولا في اليوم التالي، ولا التفكير في البوابات، المخلوعة مفصلاتها، لقد أفزعته فكرة الكلب الميت الراقد؛ أما هناك، فإن الأمر يبدو، وكأنه لن ينتهي عند هذا الحد، فإنه لا يريد أن يستيقظ من نومه في الصباح، ويحتاج إلى دفن الكلب، وهنا تعاوده صورة الفئران، التي تنهشه. الأرض صلبة جدًّا، وهناك دفء، مازال يسري في صمت الليل، ويشعر به قريبًا، وقاهرًا، ووخمًا، حقًا؛ إن الأرض صلبة، لكن العمل الجاد، يخفف عنه، وهو يدفع بالآلة إلى الأرض، لإن الحفر يكون صعبًا، دون وجود لإصبعه، ومازال كاحله يؤلمه؛ عندما يضع ثقله على رأس الفأس، لحفر التربة، لكن كل هذه الأدوات، تساعده على العمل -لا شك- وينفرج باطن الأرض بالتدريج، ناثرًا التراب والحصى، وسط الضوء الرقيق، الذي يشعه مصباح تيللي، هذا المصباح يصدر هسيسًا؛ وهو يحترق، ليعطي ضوءًا فضيًّا، فتبدأ الفراشات، و الذبابات تحوم حوله. كان قد أخذ المصباح من البهو، وملأه بغاز الميثان الوردي، نفاذ الرائحة، وهي رائحة، أحبها كثيرًا مذ كان طفلاً، عندما كانت رائحة هذا المصباح الغازي، تنتشر بينهم في حظيرة الغنم، أو -لمرات قليلة- في الحديقة ليلاً، و انتثر بعض من الغاز على يديه، وتبخر بسرعة، تاركًا بشرة يديه غريبة، و جافة، لكن في مرونة حزام من الجلد. دفع بعضًا من الهواء، داخل المصباح؛ ليزيد الضغط فيه، وأشعل الرقاقة ؛ فانتشر الضوء الفضي الرقيق في المكان. يرفع الكلب؛ ليضعه في الحفرة التي صنعها،ويتبدى ككلب فخم ضخم داخل الحفرة، إن إهالة التراب عليه، عملية صعبة على نفسه، لكنها هي الصواب؛ لأن رائحة الهواء حوله تغيرت قليلاً. على الأرض المسطحة الجامدة، بجوار المكان الذي حَفَره؛ تهبط قطرات المطر، ثم تختفي، كأنما ابتلعتها الأرض الجافة. يرفع يديه عاليًا، ويبدأ المطر في الهطول؛ فتلمع قطرات المطر، في

ضوء المصباح، وتنتثر فوق سطح الأرض. عندئذ أمطرت السماء حقيقة؛ إذ هطل المطر، على الصاج المتعرج لسطح الرواق البهو، ثم يسقط نحو التربة الجافة المتشققة، وفوق الحقول الممتدة. نهضت "كيت" من فراشها، وذهبت مباشرة إلى النافذة، انحنت خارجها، تاركة المطر؛ يسقط على بشرة ذراعيها العاريين، و بدا غريبًا، كما لو كان جليدًا. تسمع صوته على السلالم، وتدرك أنه قادم إليها بودٍ، إذ إنه لا توجد شحناء بينهما، تحني رأسها خارج النافذة، وعند عودتها إلى الغرفة؛ تتناثر قطرات المطر، فوق وجهها وشعرها، وتمرر عنقها، عبر فتحة قميصها الناعم، وتبدأ في البكاء، وهو قوي، وفخور، وصالح؛ يقول: "إنها تمطر"، وبالكاد تسمعه هي...

تَقْدِيرٌ

إن الذكريات، التي تدور في هذا الكتاب، مأخوذة من نص: هن إرفافيريون جيمير يادن، المسجل على شريط سماعي؛ بواسطة جدي:"دافيد ليولين ويليامز"؛ قبل وفاته، عام ١٩٩٤م، وقد تم عرضها - هنا- إما بصدق، أو أنني استخدمتها، بعد تطويعها لأغراض الدراما السَّردية. أما عن قسم الأرنب، فإنه مهدى لـ "شين كيلي"، الذي كان متواجدًا هناك.

كونان جونز